قلم الذكر ٣

الفتح بالفاتحة

(الجزء الأول)

تأليف

توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

الفتح بالفاتحة

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ-٢٠٢١م

الصف والتصميم والإخراج:

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

حولي- شارع المثنى- مجمع البدري
الدور الأرضي- محل ٢٩
هاتف: ٦٩٦٠٠٤٤٤

الفتح بالفاتحة

(الجزء الأول)

تأليف

توفيق بن خلف بن عبدالله الرفاعي

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

سُورَةُ الحِجۡرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين الرحمن الرحيم

ملك يوم الدين إياك نعبد

وإياك نستعين اهدنا الصرط المستقيم

صرط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

المقدمة:
التعظيم لأمِّ القرآن العظيم

التعظيم الأول: تصدرها للقرآن العظيم:

لقد قال الله ﷻ وصدق الله العظيم -سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧].

سبحان من ابتدأ نزول القرآن على رسوله ﷺ بـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، وسبحان من جعل نزول القرآن بترتيب وقوع الأحداث في الأرض، وأخذ تلك النفوس بتدرُّجٍ حتى بناها أحسن بناء.. فكانت خير أمة أُخرجت للناس، كل هذا ونحن لا نعلم متى كان نزول فاتحة الكتاب تحديدًا. وسبحان من فعل ذلك كله ثم هو -سبحانه- يعلم أنَّ هذا ليس هو ترتيب كتاب الخلود الذي سوف يستقر على ترتيب آخر، وأن القرآن لن يبقى هكذا.... فتبيَّن بعد ذلك مراد الله العظيم -سبحانه- وهو أنه من المستحيل أن تتصدَّر سورة في الكتاب العزيز قبل فاتحة الكتاب، فما كان النبي ﷺ يُقدِّم قرآنًا عليها في صلاته، بل إنها أول القرآن يقرؤها بين يدي ربه في كل ركعة.. ومع هذا فما كانت هذه دلالة قاطعة على أن أم الكتاب ستكون الأولى في المصحف كله إذ ما أعلم الله رسوله ﷺ والخلق كافة بترتيب القرآن العظيم، متى جاء جبريل عليه السلام لِيدارسَ النبيَّ ﷺ القرآنَ ويُعْلِمُه بترتيبه الأبديّ الذي يريده الله فكانت الفاتحة أولًا، وما كان للفاتحة إلا أن تكون هي الافتتاح، وبها الافتتاح، ومنها الافتتاح.. وهكذا

فإن الله ﷻ ما سمَّى شيئًا إلا بحق، وما سمَّاه إلا أعطاه من اسمه مُسمَّاه كاملًا، وتبيَّن عِلْم الله الذي وسع كل شيء إذ سمَّاها فاتحة الكتاب كما في السُّنَّة، **فكيف لا نرجو أن يكون الفتح اليوم بالفاتحة؟!**

وحين أَخذَتْ [أُمُّ الكتاب] موقعَها المتصدِّرَ المتفرِّدَ في أول الكتاب وافتتاحه أخذت -بعد ذلك- كلُّ سورةٍ موقعَها في الترتيب... وكان لموقع كل سورة حِكمة، كما كان لموقع كل آية حِكمة.. وكان لموقع كل كلمة حِكمة.. **وكان لهذا الترتيب بأدق تفاصيله حِكمة**، وكان لارتباطه بكل شيء في كل شيء في هذا الكتاب العظيم حِكَمٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصى ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٣٢]، وقال -سبحانه-: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس:١-٢]، وقال -سبحانه-: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقال -سبحانه-: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].. وكان ذلك كلُّه مرتبطًا بتلك السورة العظيمةِ العليَّةِ المتصدِّرةِ سُوَرَ القرآنِ العظيمةَ العليَّةَ كلهَّا.. وإلا فهل من الحكمة أن يكون افتتاح أعظم كتاب إلا بفاتحة الكتاب والله أحكم الحاكمين -سبحانه-؟!

فكم في فاتحة الكتاب من عجبٍ وحِكَمٍ تجري منها إلى آخر القرآن العظيم، **ثم كان هذا الترتيب** هو الذي جعله الله كذلك للدعوة إلى الله والمحاجّة شاهدًا، وهاديًا، وللنفوس مزكيًا، وللخشوع مَصْدرًا، وللعلم وطالبه مُعَلِّمًا، وللمماري قاطعًا، وللفقه وطالبه مُفَقِّهًا، وللحُكْم والقائم به مَصْدرًا فردًا عاليًا، **وكان هذا الترتيبُ في كل شيء آيةً ورحمةً وبركةً وهداية، وكان هذا الترتيب** جزءًا لا يتجزَّأ من القرآن ذاته.. فمن رتَّبه هو الله رب العالمين، وكان هو القرآن، وهو من القرآن، ولا يُسَمَّى القرآن بغير هذا الترتيب قرآنًا، وكان هذا الترتيب إعجازًا لكل شيء وفي كل موضع سورة مع سورة، وآية بعد آية، بل وحتى ما بين الآية

والآية إعجازًا لا ينتهي -واللهِ- أبدًا.. فهذا هو القرآن العظيم.. فإنه تنزيل من حكيم حميد، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، والله ﷻ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

إن كل شيء في هذه السورة العظيمة يحمل رسالة تُنبِّهنا أننا أمام شيءٍ لا شيءَ مثله أبدًا حتى موقع هذه السورة يحمل رسالة؛ وأول رسالة في هذا الموضع تقول لنا: هذهِ السورة هي الأولى رغم أنها ليست الكبرى، ولوكان القياس يشمل الفاتحة لكان مكانها في الجزء الأخير في القرآن -وكل القرآن عظيم-، ولو كان الأمر في التقديم بكثرة الأحكام، أو بعدد الأحرف والكلمات والآيات الكريمة لَمَا كان هذا موقعَها... لكنه أمرٌ عظيم لا منتهى لعظمته يشهد به موقعها من القرآن.. وكفى بالله شهيدًا، **ولهذا كان الفتح بالفاتحة.**

وثاني رسالة تقول لنا: إنك أمام «أم الكتاب» وأي شيء من الكتاب يتقدَّم [أم الكتاب] إذا حضرَت؟! لذا فإن الأمر مع [أم الكتاب] يختلف، والقياس مع [فاتحة الكتاب] يختلف، والتفرُّد هنا يختلف.. فهي «الأم» والأم تختلف، وهي العظمى والعظمى تُقَدَّم، وهي المخصوصة بكل عظمة والمخصوص ينفرد.

وهكذا تتساوى أفراد الأسرة الواحدة في كونهم أصولًا وفروعًا لهم وتنفرد الأم عنهم في كونها «الأم» -ولله المثل الأعلى-، وهكذا هو حال سور القرآن العظيم وآياته الكريمة مع «أم القرآن» «أمّ الكتاب»، فالأم هي الأم وليست هي واحدًا من الأفراد الآخرين، وكل القرآن عظيم. وأيًّا كان المعنى فإن أصل المعنى ومرجعه واحد.

فإن لم يكن الافتتاح بالأم فبأي شيء يكون؟!

إن فاتحة الكتاب مستثناةٌ من دون القرآن كله في القراءة في الصلاة حتمًا لازمًا ولو قُرِئَ القرآنُ كلُّه لما عوَّض عن فاتحة الكتاب، أما ما بعدها فيعوِّض بعضه عن بعض وكله عظيم. ثم إن الله ﷻ لم يرضَ لها إلا أن تكون فرضًا في الصلاة، ولا تكون إلا السورة الأولى في الصلاة... فالافتتاح بها إذا لاقينا ربنا -سبحانه.

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «**كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ فِي الأُولَيَيْنِ بِأُمِّ الْكِتَابِ وَسُورَتَيْنِ، وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ بِأُمِّ الْكِتَابِ، وَيُسْمِعُنَا الآيَةَ، وَيُطَوِّلُ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى مَا لاَ يُطَوِّلُ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ، وَهَكَذَا فِي الْعَصْرِ، وَهَكَذَا فِي الصُّبْحِ**»[(١)].

ولو خلت الصلاة من القرآن ما خلت من أم الكتاب أبدًا مثل صلاة الجنازة.

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ صَلَّيْتُ خَلْفَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَلَى جَنَازَةٍ فَقَرَأَ: بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، قَالَ: لِيَعْلَمُوا أَنَّهَا سُنَّةٌ[(٢)].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أُمُّ الْقُرْآنِ عِوَضٌ مِنْ غَيْرِهَا وَلَيْسَ غَيْرُهَا مِنْهَا عِوَضٌ**»[(٣)].

التعظيم الثاني: وما أدراك ما المثاني:

ألا لقد قال الله وصدق الله إذ قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ

(١) أخرجه البخاري (٧٧٦)، ومسلم (٤٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٨٦٧)، وقال: قَدِ اتَّفَقَ الشَّيْخَانِ عَلَى إِخْرَاجِ هَذَا الْحَدِيثِ عَنِ الزُّهْرِيِّ مِنْ أَوْجُهٍ مُخْتَلِفَةٍ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ، وَرُوَاةُ هَذَا الْحَدِيثِ أَكْثَرُهُمْ أَئِمَّةٌ، وَكُلُّهُمْ ثِقَاتٌ عَلَى شَرْطِهِمَا، وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَوَاهِدُ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ لَمْ يُخَرِّجَاهُ وَأَسَانِيدُهَا مُسْتَقِيمَةٌ.

﴿ٱلۡعَظِيمَ﴾، فلأنها القرآن العظيم نُقَدِّمها في القرآن العظيم. إذا نظرت في سورة «السبع المثاني والقرآن العظيم» تجدها حقًّا هي السبع المثاني كما تجدها القرآن العظيم وتجد القرآن العظيم كله فيها، ولهذا أقول: من المستحيل أن يحيط بعلمها مفسِّر، أو يجمع كل ما فيها مؤوِّل، ولو جَمَعَ كل ما كُتِبَ فيها فإنه لا يعادل قطرة في بحارها الحقة الواسعة التي لا مُنتهى لها ولا حدّ؛ ذلك أن القرآن العظيم من كلمات الله وهو كلامه، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان:٢٧] فكيف وهذه القطعة المباركة من الآيات السبع فيها كل ما في القرآن العظيم، وليس كل ما في القرآن يحويها -مع أنه العظيم-... فمن له بها طاقة؟!

إنك كلما تحدَّثتَ في عجيب ما جعل الله في [أم الكتاب] من أصول جاء بيان تفاصيلها في القرآن العظيم مثلًا.. وارتويتَ حتى تقول: انتهيت، وربما وقع في نفسك أنك ما تركتَ شيئًا.. وأنك بهذا اكتفيت! إذ بالله ﷻ يفتح لك طَيًّا طواه في أم الكتاب.. فإذا به خزائن جديدة ربما لم تدرك منها بعد فتحها إلا حرفًا، ولم ترَ عيناك من حرفها إلا طرفًا، وقد توهَّمت قبله أنك بلغت مبلغًا مُشرِّفًا!

وكل هذا يشير إلى أنواع العلاقة ما بين [أم الكتاب] وهي [السبع المثاني] وبين القرآن العظيم الذي هو مثاني، وكل هذا يشير إلى أن المثاني ستبقى مثاني لن تُفكَّ مثانيها ولا يُفتح طيُّ ما فيها... إلى ما شاء الله وبالقَدْر الذي يشاء الله ﷻ.. وهي كالبحور في امتلاء دائم أبد الآبدين، بل البحور لا تساوي إلا قطرة فيها.

ألا ما أجلَّ وأجملَ الإحكامَ ما بين «سَبْعًا مِّنَ الْـمَثَانِي» و«أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ».

فلقد قال الله ﷻ عنها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، كما قال -سبحانه- عن كتابه العظيم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

إن الحقيقة العظمى هي أن هذه السورة العظمى جمعت القرآن العظيم كله بكل ما فيه.. وأي شيء ليس فيه؟!

نعم إن [أم الكتاب] هي [السبع المثاني] وباقي كلامِ اللهِ كلِّه إنما هو بيانٌ للسبع المثاني، فآيات القرآن العظيم هي أكثر من سبع بكثير... فالله ﷻ يريد أن يلفت انتباهنا إلى أن كل تلك العظمة للقرآن، و«الكثرة المباركة...إلخ» من الآيات العظيمة إنما هي بيان لآيات معدودة.. إنها بيان للسبع المثاني... إنها سبع فقط! فما الغريب في هذا وما العجيب؟! أعجيبٌ ذلك على الله ﷻ؟ فكما طوى اللهُ ﷻ فضائلَ أكثر من ثلاث وثمانين سنة في ليلة واحدة، هي ليلة نزول القرآن - ليلة القدر -هي في الحقيقة فقد طوى في السبع المثاني أكثرَ من ستة آلاف ومئتين وست وثلاثين آية.. وزيادة.. وكله كلام الله -سبحانه-.

وكما قلَّل تبارك وتعالى أيام شهر رمضان وعدَّدها مع ما جمع فيه من الفضائل، وليلة القدر واحدة من لياليه، فقال -سبحانه-: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فقد عدَّد وحدَّد آيات إلا أنه سبحانه جمع في ليلة القدر فضائل ٨٣.٤ سنة، بل أكثر؛ أي أنه جعل في الليلة أكثر من تسعة وعشرين ألف يوم وليلتها وستمائة وسبع ليال،وهي ليال وأيام مليئة بالحسنات الخالصة... هذا فضل في خلق الله فماذا جعل في كلامه...بل ماذا جعل في أم الكتاب....والتي سبحانهأصلا ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾؟!

فهذا هو الإعجاز فوق الإعجاز. أوليس أعظم ما يضم ويثنى عليه ثنيًا بعد ثني هو الكنز.. أوليست أم الكتاب هي الكنز الأعظم الذي أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ، فقال ﷺ -كما رواه أنس رضي الله عنه-: «**إِنَّ اللهَ ﷻ أَعْطَانِي فِيمَا مَنَّ بِهِ عَلَيَّ: إِنِّي أَعْطَيْتُكَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَهِيَ مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي، ثُمَّ قَسَمْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ نِصْفَيْنِ**»[(١)]؟!

أوليس تحديد [سبعًا] إنما هو تحديد يُراد به العظمة، إذ كلُّ هذا القرآنِ العظيمِ إنما هو بيانٌ للسبع المثاني؟!

نعم إن أم الكتاب تحدَّثت في جماع كل خير، وفي معاقد الأمور العظمى، فكل هذا حق ولكن هل أشار الله ﷻ لهذا إشارة؟! إن الجواب الواضح والصريح في كونها ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ وهو المقرون في آية الإيتاء هو في نفس قول الله ﷻ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وتحديدًا: «الْـمَثَانِي» إن معنى كونها [مثاني]؛ أي أن بعضها يُثْنَى على بعض، وما يكون بعضه يُثْنَى على بعض لا يظهر ما فيه أبدًا إلا إذا فُكَّ ثَنْيه وفُتح طيُّهُ عن بعض، قال في لسان العرب: ثَنَى الشيءَ ثَنْيًا: ردَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وأَثْنَاءُ الوادِي: مَعاطِفُه وأَجْراعُه، وَهِيَ مَعَاطِفُ الثَّوْبِ وَتَضَاعِيفُهُ، وقال اللَّيْثُ: إِذا أَراد الرَّجُلُ وَجْهًا فَصَرَفْتَهُ عَنْ وَجْهِهِ قُلْتَ ثَنَيْته ثَنْيًا إِذَا صَرَفْتَهُ عَنْهُ[(٢)]، وقال: وأَصله مِنْ ثَنَيت الشَّيْءَ إِذا حَنَيْته وعَطَفته وَطَوَيْتَهُ. وَيُقَالُ لِلْفَارِسِ إِذا ثَنَى عُنُقَ دَابَّتِهِ عِنْدَ شدَّة حُضْرِه: جَاءَ ثَانِيَ العِنان. وَيُقَالُ

(١) فضائل القرآن لابن الضريس ص (٧٩) رقم (١٤٤)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد علي عيسى في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» ص (١٢٩): الحديث له شاهد عن أبي أمامة رجاله ثقات.

(٢) لسان العرب (١٤/ ١١٥).

لِلْفَرَسِ نَفْسُهُ: جَاءَ سَابِقًا ثَانِيًا إِذا جَاءَ وَقَدْ ثَنَى عُنُقَهُ نَشاطًا لأَنه إِذا أَعيا مَدَّ عنقه، وإِذا لم يجئ وَلَمْ يَجْهَد وَجَاءَ سيرُه عَفْواً غَيْرَ مَجْهُودٍ ثَنَى عُنُقَهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

ومَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي يَجِئْ قَبْلَ السَّوَابِقِ، وهْوَ ثَانِي

أَي يجئ كَالْفَرَسِ السَّابِقِ الَّذِي قَدْ ثَنى عُنُقَهُ(١)، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ طَلَّاع الثَّنَايَا إِذَا كَانَ سَامِيًا لِمَعَالِي الأُمور كَمَا يُقَالُ: طَلَّاع أَنْجُدٍ، والثَّنِيَّة: الطَّرِيقَةُ فِي الْجَبَلِ كالنَّقْب»(٢)، قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: «وأَصله مِنْ ثَنَيت الشَّيْءَ إِذا حَنَيْته وعَطَفته وَطَوَيْتَهُ. وانْثَنَى أَي انْعطف» (٣)؛ المَثَانِي مِنَ الْقُرْآنِ: مَا ثُنِّيَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ(٤)، وأكثر أقوال العلماء وأشهرها في بيان معنى المثاني: هو ما ثناه الله على بعضه بالمعنى مثل الترغيب والترهيب، والأمر والنهي، والجنة والنار، ونحو ذلك، وهذا حق وما هو إلا جزء صغير في معنى المثاني الكبير، كما أنه جزء من معنى «مثاني»، والذي هو سمة في القرآن كله كما قال -سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] إذًا فإن الاختصاص في أم الكتاب ليس في كونها السبع فحسب، وإنما الاختصاص الأعظم لكونها السبع المثاني، ثم إنه فارق عظيم بين أن يقول الله عن القرآن كله﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ وبين التعريف بالألف واللام فيقول: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ وبعظم كونها ﴿سَبۡعٗا﴾، ويعظمه أولا بالإيتاء﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، ويعظمه

(١) لسان العرب (١٤/ ١١٦).
(٢) لسان العرب (١٤/ ١٢٢-١٢٣).
(٣) لسان العرب (١٤/ ١١٦).
(٤) لسان العرب (١٤/ ١١٨-١١٩).

بنون العظمة في ﴿ءَاتَيْنَاكَ﴾، ويعظمه بتخصيص الإيتاء للنبي ﷺ، لا لسواه، وهذا ما لم يجمعه لأي جزء من أجزاء كلامه الكريم سبحانه، وإلا فَلِمَ لَمْ تُسمَّ أي سورة أخرى بأنها الثلاث المثاني، أو الأربع المثاني، أو المئون المثاني.. لماذا «السبع المثاني».. وهكذا فقد صرَّح النبي ﷺ بهذا الاسم لها من دون كل آيات الله تعالى، وعَرَّفها النبي ﷺ -وليس بعد تعريف النبي ﷺ من تعريف- فقال: «**أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْـمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**»[1]، ولو لم يكن القرآن العظيم فيها فكيف يُعرِّفها النبي ﷺ بأنها «**هِيَ السَّبْعُ الْـمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**»..؟!

حقًّا إن عظمة القرآن لا تبلغها عظمة فهو كلام الله ﷻ وكفاه، إلا أن عظمة القرآن وآياته المثاني هي التي لفتت انتباهنا إلى عظمة السبع المثاني... فحين ذكر الله أن آياته مثانٍ دخل في هذا آيات أم الكتاب ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣] فآيات أم الكتاب داخلة فيه قطعًا، لكنه حين ذكر آيات أم الكتاب وأنها ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ لم تدخل فيها آيات القرآن قطعًا لقوله -سبحانه-: ﴿سَبْعًا﴾ ولعطف القرآن عليها ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] ولذهاب اسم المثاني عن آياته، ذلك أن مثاني أم الكتاب احتوت كل كل مثاني وإنها لمحيطة بالجميع.. ومن ثَمَّ فإن كل ما في القرآن مما تعلم تجده في أم الكتاب وهكذا ما لا تعلم، فكل علم القرآن موجود في أم الكتاب، وكل نور القرآن العظيم موجود فيها، وهكذا قوته، وعُلُوّه، ومناهجه، ودعوته، وأصوله، وقواعده!. وهذا ما سترى بعضه -بإذن الله- في الأجزاء القادمة من الفتح بالفاتحة.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٤).

ومثاني القرآن العظيم عظيمةَ، ومثاني أم الكتاب ضَمَّت في مثانيها كل مثاني القرآن، وما هي إلا سبع آيات، **وهذا -واللهِ- هو الإعجاز**... فرغم أن القرآن العظيم بحارٌ لا منتهى لها، إلا أن تلك البحار مجموعة في كلمات «السبع المثاني» فقط، إنها تضيف على المنتهى منتهى لا منتهى له.. وتفيض على الجلال من الجلال جلالًا لا منتهى له... وتضيف على الجمال جمالًا لا منتهى له، وتضيف فوق العلم علمًا لا منتهى له، وفوق النور نورًا لا منتهى له، وهكذا تضيف من القوة على القوة، ومن العُلُوِّ فوق العلو، ومن القُرب فوق القرب، ومن العمق بعد العمق، ومن التيسير بعد التيسير، والجميع كلام الله العلي الكبير. هذا وكل كلمات ربي لا منتهى لها.

إنها حقيقة عظيمة مذهلة حين يقرِّبك الله ﷻ منها قليلًا.. فيتراءى لنفسك أنك تكادُ تلامسُ بقلبك فيوضَها البعيدة، فإذا بينك وبينها سماوات لا يعلم أبعاد ما فيها وأبعاد ما بينها إلا الله ﷻ!

ولا يمكن لكائن مَنْ كان أن يَفُكَّ ما ثَنَاه اللهُ أبدًا حتى لو كان ما ثناه اللهُ سبعًا.. إلا أن يُبيِّنه الله رب العالمين، وهنا لما جاء ذكر السبع المثاني منسوبًا لها وحدها ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾، ثم ذكر في نفس الآية [ورسم المصحف] دون أن يذكر أنه مثانٍ هنا تبيَّن أنه إذا ذُكرت مثاني [السبع المثاني] لم تصبح غيرها معها مثاني وإن كانت آيات القرآن عظيمة، هكذا حين جمعها الله في آية واحدة ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾.. أما حين أفرد الله عز وجل القرآن العظيم وحده من دون أن تُذكر الفاتحة معه قال عنه: [مثاني]، فقال سبحانه في سورة الزمر: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾، وجمعها بالكلمات التامات التي نراها، ومن يدري فلعلَّ المعنى أن كل آيةٍ من آيات أم الكتاب مثانٍ بشكل مطلق.. لا منتهى

لمثانيها.. وهذا أظهر في الإعجاز؛ فإنكم إذا عجزتم عن فكِّ ثنيةٍ واحدة فكيف تفكون ما لا منتهى لمثانيها وهي أم المثاني؟! ويؤيده أن الله ﷻ ما قال: اثنين، بل قال: مثاني، أي: اثنين بعد اثنين، فهي مضاعفة التثنية أضعافًا بعد أضعافٍ... أضعافًا مضاعفة وأضعافًا لا منتهى لها، قال ابن منظور ﷺ: ومَثْنَى الأَيادِي: أَن يُعِيدَ معروفه مَرَّتَيْنِ أَو ثَلَاثًا، وَقِيلَ: هُوَ أَن يأْخذَ القِسْمَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، والثِّنْيُ مِنَ النُّوقِ: الَّتِي وَضَعَتْ بَطْنَيْنِ، وثِنْيُها وَلَدُهَا، وَكَذَلِكَ المرأَة، وَلَا يُقَالُ ثِلْثٌ وَلَا فوقَ ذَلِكَ[1]. ولهذا كان القرآن بحارًا لا تنفد، ولكن جَمَعَتْهُ كله مثاني السبع المثاني لك.

ألا ترى كيف قال الله ﷻ بعدها لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

أي: فلا عظمة في هذه الدنيا مهما كان نوعها ومصدرها ينبغي أن تلفت عيناك بمدٍّ اهتمام... أيَّ مدٍّ!.. لأن عندك كل شيء، وعندك أعظم شيء، عندك المصدر وزيادة وهو السبع المثاني، وعندك تفصيلها وهو القرآن العظيم. وليس في هذا أدنى مبالغة، لأنه ليس فيه خروج أبدًا على ما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولا ما ورد عن أئمة الإسلام الأُوَل، فلقد قال الإمام الحسن: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ**»[2]، وَعَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]

(١) لسان العرب (١٤/ ١٢٠).

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ص (٢٢١). وقال الدكتور إبراهيم علي السيد علي عيسى في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» ص (١٣١): مرسل رجاله ثقات.

شَقَّ عَلَى إِبْلِيسَ مَشَقَّةً عَظِيمَةً شَدِيدَةً، وَرَنَّ رَنَّةً[١] شَدِيدَةً، وَنَخَرَ نَخْرَةً[٢] شَدِيدَةً، قَالَ مُجَاهِدٌ: «فَمَنْ رَنَّ أَوْ نَخَرَ فَهُوَ مَلْعُونٌ»[٣]

التعظيم الثالث مركَّب العظمة من السبع نفسها: إنها رسالة أخرى من بحار العظمة غير المتناهية تُبرِز حقيقة متجلية تقول: ما بال هذه العظمة غير المتناهية، وتفاصيل الأشياء غير المحدودة ثم إنه لا تعارض في حرف مع حرف، ولا معنى مع معنى، ولا علم مع علم، ولا علم مع مفردات العلم الكثيرة، ولا شيء مع شيء مطلقًا هذا إذا ما استحضرت أن الله ﷻ قد قال حقيقة -وقوله حق لا ريب فيه-: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، فهو كل شيء وأم الكتاب فيها بالأصل كل شيء، وثنَّت بكل شيء، وما من شيء يتعارض مع شيء... فهل رأينا إعجازًا مثل هذا.. وهل سترى الخلائق مثله؟! لا والله. ولقد صدق الله ﷻ إذ قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

لقد عوَّدنا الله ﷻ أن رقم السبع إنما هو «مُركب العظمة» في الكثير مما ذكره -سبحانه- والله بنى ملكه على علم وعلى نظام.. ولله في خلقه معاقد، وله -سبحانه- فيها أسرار، والله ﷻ يذكر السِّرَّ ويذكر موطنه، والله ﷻ ربط علم ذلك بالقرآن العظيم.. نعم ربطه بالقرآن العظيم، فقال -سبحانه-: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ

(١) **الرَّنَّةُ**: الصَّيْحَةُ الحَزِينةُ. والرَّنِينُ: الصِّيَاحُ عِنْدَ الْبُكَاءِ. وقيل الرَّنَّةُ والرَّنِينُ الصَّيْحَةُ الشَّدِيدَةُ وَالصَّوْتُ الْحَزِينُ عِنْدَ الْغِنَاءِ أَو الْبُكَاءِ. لسان العرب، مادة رنن (١٣/ ١٨٧).

(٢) **نَخَرَ**: النَّخِيرُ: صوتُ الأَنفِ. نَخَرَ الإِنسانُ وَالْحِمَارُ وَالْفَرَسُ بأَنفه يَنْخِرُ ويَنْخُرُ نَخِيراً: مَدَّ الصَّوْتَ والنفَس فِي خَياشِيمه. لسان العرب، مادة نخر (٥/ ١٩٧).

(٣) فضائل القرآن لابن الضريس ص (٨٢) رقم (١٥٦). وقال الدكتور إبراهيم علي السيد علي عيسى في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» ص (١٢٧): إسناده صحيح رواته ثقات.

﴿ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦]، فما كان ذكر سرّ السماوات والأرض بعد ذكر القرآن إلا لحكمةٍ بالغة، ودلالة غالية ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى﴾... أولم يقل الله عنه: إنه ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال -سبحانه-: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

ولقد ورد عن ابن عباس ﷺ في السبع كلامًا جامعًا حين سأله عمر ﷺ عن ليلة القدر وأية ليلة هي، فقد جاء في الأثر: «قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ دَعَا عُمَرُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فأجمعوا على أَنَّهَا فِي الْعشْر الْأَوَاخِر، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ لِعُمَرَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَوْ أَظُنُّ أَيَّ لَيْلَةٍ هِيَ، قَالَ عُمَرُ: أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ؟ فَقُلْتُ سَابِعَةٌ تَمْضِي أَوْ سَابِعَةٌ تَبْقَى مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ ذَلِك؟ قلت: خلق الله سبع سماوات، وَسَبْعَ أَرْضِينَ، وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَالدَّهْرُ يَدُورُ فِي سَبْعٍ، وَالْإِنْسَانُ خُلِقَ مِنْ سَبْعٍ، وَيَأْكُلُ مِنْ سَبْعٍ[(١)]، وَيَسْجُدُ عَلَى سَبْعٍ، وَالطَّوَافُ وَالْجِمَارُ وَأَشْيَاءُ ذَكَرَهَا، فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ فَطِنْتَ لِأَمْرٍ مَا فَطِنَّا لَهُ»[(٢)].

وفي رواية: كان عمرُ بنُ الخطابِ يُدني ابنَ عباس وكان ناس من أصحاب النبي ﷺ فكأنهم وجدوا في أنفسهم، فقال: لأُرينَّكم اليوم منه شيئًا تعرفون فضله، فسألهم عن هذه السورة إذا جاء نصر الله؟ فقالوا: أمر نبينا ﷺ إذا رأى مسارعة الناس في الإسلام ودخولهم فيه أن يحمد الله ويستغفره، فقال عمر بن

---

(١) وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ [عبس:٢٧-٣١].

(٢) فتح الباري (٤/ ٢٦٢)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠٦١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤١٣، ٣٤١٢)، وجوّد إسناده الحافظ ابن كثير «تفسير ابن كثير - ط السلامة» (٨/ ٤٤٩): «وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ».

الخطاب: يا ابنَ عباس ما لك لا تتكلم؟ فقال: أَعْلَمَهُ متى يموت، قال: إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فهي آيتك من الموت، فقال عمر: صدق، والذي نفس عمر بيده ما أعلم منها إلا ما علمت، قال: وسألهم عن ليلة القدر فأكثروا فيها، فقالوا: كنا نرى أنها في العشر الأوسط، ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر فأكثروا فيها، فقال بعضهم: ليلة إحدى وعشرين، وقال بعضهم: ليلة ثلاث وعشرين، وقال بعضهم: سبع وعشرين، فقال عمر ما لك يا ابن عباس لا تتكلم؟ قال: الله أعلم، قال: قد نعلم أن الله أعلم ولكني إنما أسألك عن علمك، فقال ابن عباس: إن الله وتر يحب الوتر خلق سبع سموات والأرضين سبعًا، وجعل عدد الأيام سبعًا، وجعل الطواف بالبيت سبعًا، والسعي بين الصفا والمروة سبعًا، ورمي الجمار سبعًا، وخلق الإنسان من سبع، وجعل رزقه من سبع، قال: كيف خلق الإنسان من سبع وجعل رزقه من سبع؟ فقد فهمت من هذا شيئًا لم أفهمه، قال: قول الله: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين إلى قوله: فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم ذكر رزقه فقال: أَنَّا صببنا الماء صبًّا إلى قوله: وفاكهة وأبًّا؛ فالأبُّ ما أنبتت الأرض للأنعام، والسبعة رزق لبني آدم، قال: لا أراها والله أعلم إلا لثلاث يمضين وسبع يبقين[(١)].

ولكن كل هؤلاء السبع التي عَدَّها ابن عباس ﷺ إنما هي خلق من خلق الله، ولعلَّ سرَّ عظمتها كلها في كلمات الله التي كانت بها... وهذه أم الكتاب هي أعظم كلمات الله...

---

(١) الدر المنثور (١٥/ ٥٥٦)، التمهيد لابن عبد البر (٢/ ٢٠٩-٢١٢)، «الطبقات الكبرى -متمم الصحابة- الطبقة الخامسة» (١/ ١٤١): بلفظ «إلا ليلة ثلاث وعشرين يمضين وسبع يبقين».

ثم لا مقارنة ولا مقاربة بين خلق الله وبين كلمات الله ﷻ... فمعاقد المُلك والملكوت ما كانت إلا بكلمات الله... ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس:٨٢-٨٣]، وما من شيء في كلمات الله وكلامه وكتابه الكريم العظيم مثل [أم الكتاب]، ثم إن الله -سبحانه- حين جعل معاقد خلقه العظمى -كما رأينا- على سبع فإنما هي خلقه، وهذه كلماته، ثم إن تلك سبع مخلوقة وسبع مفتوحة مفرودة مفردة، وأما أم الكتاب فإنها سبع من كلامه -سبحانه- ومثانٍ من عنده، ولذا سَمَّاها الله ﷻ [السبع المثاني].

التعظيم الرابع: من ذا يفضل بين كلام الله تعالى؟!

والله لو كان الأمر إلينا فلا والله مهما يبلغ علمنا واجتهادنا فلن نتجرَّأ أن نُفضِّل بعض كلام الله على بعض.. أما هنا فرسول الله ﷺ هو الذي حكم وبَيَّن وهو الذي لا ينطق عن الهوى، وهو مَنْ قال: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا**»(١)، فهو الأعلم والأتقى.. وهذه أقواله الصادقة تشهد بهذا.

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «**أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾** [الأنفال:٢٤]»، ثُمَّ قَالَ لِي: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ**»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «**﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٢٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: فِي مَسِيرٍ لَهُ فَنَزَلَ وَنَزَلَ رَجُلٌ إِلَى جَانِبِهِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ الْقُرْآنِ**»؟ **قَالَ: فَتَلَا عَلَيْهِ: «الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»**(١).

وَعَنْ ابْنِ جَابِرٍ، قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَهْرَاقَ الْمَاءَ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيّ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي، وَأَنَا خَلْفَهُ، حَتَّى دَخَلَ رَحْلَهُ، وَدَخَلْتُ أَنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَلَسْتُ كَئِيبًا حَزِينًا، فَخَرَجَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ تَطَهَّرَ، فَقَالَ: «**عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ**». ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ جَابِرٍ بِخَيْرِ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ**؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**اقْرَأِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى تَخْتِمَهَا**»(٢).

وَعَنْ يَزِيدَ الرِّشْكِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا زَيْدٍ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ فِجَاجِ الْمَدِينَةِ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَاسْتَمَعَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا**»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي،**

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٧٩٥٧)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥٩٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن في المتابعات والشواهد.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨٦٦)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد علي عيسى في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم»: الحديث يرتقي بشواهده إلى الحسن لغيره.

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قَرَأْتُم: الْحَمْدُ لِلهِ فَاقْرَءُوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. إِنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إِحْدَاهَا**»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أُبَيُّ وَهُوَ يُصَلِّي**»، فَالتَفَتَ أُبَيٌّ وَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أُبَيٌّ فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: «**أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أُوحِي إِلَيَّ أَنْ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال:٢٤]؟» قَالَ: بَلَى وَلَا أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ: «**تُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟**» قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟**» قَالَ: فَقَرَأَ أُمَّ القُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي وَالقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ**»(٣).

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِثْلَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٤).

(٢) أخرجه الدار قطني (١١٩٠)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد علي عيسى في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم»: الحديث صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن حجر في المطالب العالية (٣٥١٨).

أُمِّ القُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[(١)].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[(٢)].

عن أنسٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ أَعْطَانِي فِيمَا مَنَّ بِهِ عَلَيَّ: إِنِّي أَعْطَيْتُكَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَهِيَ مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي، ثُمَّ قَسَمْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ نِصْفَيْنِ**»[(٣)].

فماذا يقول القائل وهذا حكم أعلم خلق الله قاطبة ﷺ بما أنزل الله عليه؟!

في حديث أبي سعيد بنِ المُعَلَّى ﷺ جاء تفضيل أم الكتاب بقوله ﷺ: «**أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ**»[(٤)].

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ قال ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ الْقُرْآنِ**»[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٥)، وقال: وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ، وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٦).

(٣) فضائل القرآن لابن الضريس ص (٧٩) رقم (١٤٤)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد علي عيسى في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» ص (١٢٩): الحديث له شاهد عن أبي أمامة رجاله ثقات.

(٤) رواه البخاري (٧٤٠٣).

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٧٤)، ورواه الحاكم (١/ ٥٦٠)، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وقال ﷺ في حديث عبد الله بن جابر رضي الله عنه: «**خير سورة في القرآن**»[١].

وقال ﷺ في حديث يَزِيدَ الرَّشْكِ: «**مَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا**»[٢].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إِنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَ** ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **إِحْدَاهَا**»[٣].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ**»[٤].

وفي حديث أبيِّ بن كعب رضي الله عنه زيادة قال النبي ﷺ فيها: «**وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[٥].

إنني أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أن أم الكتاب لم تغادر شيئًا إلا بيَّنته في القرآن العظيم الذي لم يترك شيئًا إلا بَيَّنه..

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**»[٦]، وفي حديث أنس رضي الله عنه: «**وَهِيَ مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي**»[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٩٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن في المتابعات والشواهد.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨٦٦).

(٣) أخرجه الدار قطني (١١٩٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١١٨٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥)، وصححه ابن حجر في المطالب العالية (٣٥١٨).

(٥) أخرجه أحمد (٢١٠٩٤)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٦) أخرجه مسلم (٨٠٦).

(٧) تقدم تخريجه.

ولا يمكن لقائل -بعد كل هذا- أن يقول: إن خواتيم البقرة مثل أم الكتاب! نعم هي مثلها في أن كليهما كنز من تحت عرش الرحمن وأَنْعِمْ وأَعْظِمْ به من اشتراك إلا أن خواتيم البقرة كنز لكنها ليست هي السبع المثاني والقرآن العظيم، ولا أفضل من جميع ما أنزل الله، وليست هي أم الكتاب، ولا خير ما أنزل الله في القرآن، وما إلى ذلك مما لا نظير له!

بل في أم القرآن ما في القرآن العظيم وزيادة... وأحاول أن أُبيِّن بعضًا مما بيَّنته أم الكتاب في ثنايا كل آية من آياتها - بإذن الله ﷻ حتى لو أشرتُ لها مجرد إشارات لكنها ستكون إشارات واضحة ملفتة، فإني أخشى أن أفرغ في هذا الجانب الحديث فيذهب الإيغال في الأفكار، وكثرة التقسيم بأعظم شيء وهو «أُمُّ الكتاب» الإيماني، وأثرها في الصلاة خاصة، فضلًا أن يصبح ذلك مادة للجدل في زمن عِشْقِ الجدل في كل شيء حتى في كتاب الله تعالى!

الرسالة الأولى:
فاتخِذوه عَدُوًّا
(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

دقِّق النظر وستجد أن هجوم الشيطان على حصن الإيمان لـم ولـن يتوقـف أبدًا.

ومِـن أخطـر مكائـده أنـه يـسعى لأن يـصرفك عـن الاسـتعاذة بـالله في وقـت حاجتك للنجـاة منـه، فيُنسيك الاسـتعاذة عنـد الغـضب، وعنـد الـشهوة الحـرام، وعند الخلاف بين الأحبة، وفي حالات الضعف يزيدك ضعفًا، وفي الحزن يبعث الحزن ويزيدك حزنًا، وفي الخوف يزيدك خوفًا، وهكذا شأنه في تهويـل الكلمات الصغيرة ليُسوِّد القلوب، ويقطع العلاقات، ويُشتِّت الأُسَـر، ويـشغل القلـب عـن ربه بأي شاغل.. ليفرغ له الميدان -نعوذ بالله منه-، وحـدِّث ولا حـرج عـن آثـارٍ مدمِّرة.

ولو استعاذ الناس بالله من الشيطان الرجيم لكفاهم الله وحماهم وحفظهم.

إن أخطر حيلة يدخل الشيطان منها علينا ونحن لا نشعر أنه يُنسينا عداوته لنا بل ينسينا نفسه، ولذلك فهو يخنس وهو يوسوس، ووساوسه تجـري مـن الفكـر نفـسه، فـلا تـشعر إلا أنهـا أفكـارك أنـت، وتـشعر في العـادة أنهـا الأفكـار المُنقـذة والكبيـرة والواضـحة، بينمـا الحقيقـة أن الـذي يجمعهـا ويكـشفها هـو قـول الله تعـالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٢]، فمـا تكـاد تنتهـي مـن صـلاتك حتـى تكتشف أنها زخرف القول غرورًا.

هنا تأمَّلْ في الأغلبية الساحقة من المعالجين النفسيين المسلمين -هداهم الله- على مختلف أسمائهم، وسوف ترى كيف أنساهم الشيطان أنفسهم، فذهبوا وراء السراب ولم يظفروا بسعادةٍ في النفس ولا نجاحٍ في الواقع، وكيف أنهم لم يجعلوا الاستعاذة جزءًا من العلاج، بل جعلوا الاستعاذة خروجًا عن الواقعية، بل أخذ بعضهم الشيطان إلى ضلال بعيد مثل ما يسمُّونه (علم ما فوق الطاقة)، وعلم «الجكرات الهندية»، وكل هذه وأمثالها إنما هي في حقيقتها من عبادة الشيطان، وقد أوصانا ربنا -سبحانه- فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧]، وجعل -سبحانه- من قصة أبينا آدم عليه السلام عبرة لا تُنسى ولا ينبغي أن تتكرَّر مع ذريته فتُنسى، كما نسي أبونا آدم عليه السلام حين أسكنه الجنة وقال له ﷺ: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧] فإنه حين نسي وصية الله أخرجه الشيطان من جنة الله.

فإياك ثم إياك أن تنسَى وصية الله لنا ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾ [فاطر: ٦] فلا يكفي أن نعلم أنه عدو، بل لابد أن نتخذه عدوًّا.

وَلْنتذكَّرْ دائمًا وأبدًا وصيةَ اللهِ -سبحانه- بأن نتخذ الشيطانَ لنا عدوًّا في كل جزئيةٍ من حياتنا حتى آخر لحظةٍ منها، فالشيطان لا يزال يطمع من الصالحين بكل لحظة قادمة، وإلا فيطمع أن يتخطَّفه باللحظة الأخيرة والنَّفَسِ الأخير قبل الغرغرة.

إذًا؛ فَلْنتصوَّر الآن كيف هو طمع الشيطان بسرقة أثمن لحظات الحياة وهي

الصلاة بل كيف تَحَرُّقُهُ على إفسادها، كيف استعداده، كيف ذهابه وإيابه، كيف جريانه وطيرانه منذ الأذان للصلاة وحتى التسليم منها... فاللهَ اللهَ بالتحصن منه بالاستعاذة، والحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة، والحمد لله الذي أبطل كيده بالاستعاذة.

وإنه ورغم أهمية الاستعاذة وضرورتها فلا يظن المسلم أن الشيطان سيترك من يستعيذ بالله منه وإن كان غافلًا! فهذه حيلةٌ خطيرةٌ يجب أن نتنبه لها لنُغلق عليه كل باب يدخل منه علينا لأغلى الحصون وأثمنها مع الذين يستعيذون بالله منه، فهو يصرف المستعيذ عن فهم حقيقة الاستعاذة فيقولها البعض من غير التجاء حقيقي إلى الله ومن غير الإحساس الحقيقي بطلب الاحتماء به والتحصن بحصنه كالتجاء المضطر الهارب الذي وصل إلى باب فإن لم يُفتحْ له باب النجاة هذا صرعه العدو واختطفه.

ولقد راقبتُ هذا الأمر جيدًا فوجدتُ أن الشيطان عند النطق بالاستعاذة في الصلاة يصرف ذهنك، وغالبًا ما يشاغلك في الوقت الذي تستعيذ بالله منه، يجعلك تنشغل بأي حركةٍ حِسِّيةٍ في صلاتك، لينصرف قلبك عن ربك فالقلب يتبع الحركة الجسدية أو حركة النظر عندها تبقى صلاتك مفتوحة مُشاعةً بغير حارسٍ ولا بوّابٍ أمام الشيطان - عياذًا بالله منه -.

فكنْ أحرصَ في حِفظِكَ صلاتَكَ من حرص الشيطان على إفسادها، فإنه لا غنيمةَ عنده يظفر بها مثل ظفره بلحظاتٍ تقابلُ فيها الله فيفسدها، فتصور إذا مرت الحياة بصلاة كلها فاسدة فما قيمة تلك الحياة؟!

وكيف سينجو عبد يوم القيامة وأول سؤال يواجهه عند الحساب عن صلاح

الصلاة وليس عن أداء الصلاة!؟ فقد قال رسول الله ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ**»(١).

وبهذا تعلم أنه إن سَلِمَتْ صلاتُنا من الشيطان سَلِمتْ دنيانا وآخرتُنا، ومع هذا فَلْنعلم أن الشيطان -عياذًا بالله منه- لن يستسلم، ولن يترك لكن الله ما أعطانا هذا السلاح وهو سلاح الاستعاذة إلا لأنه يُذهب كيدَ الشيطان الرجيم، ويُطفئ ناره، ويُخنس وسوسته ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، ويقول -سبحانه-: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

فاحمِ صلاتَكَ بحِمَى الله، وكلما عاد عُد عليه بهذا السلاح واثقًا بأن الله ناظرٌ إليك وهو مُعينك وناصرك، وأنَّ مجاهدتَكَ هذه مكتوبةٌ في سجل الخشوع والمجاهدة.

وأخيرًا فإن مَنْ نظر في صيغِ الاستعاذة بالله العظيم من الشيطان الرجيم -نعوذ بالله منه- عَلِمَ أي خطورة يواجهها من تهاون بالاستعاذة.. وعلم أن الله قد كشف كيده وأبطله، وسدَّ عليه كل سُبُله، لكن ابن آدم هو مَنْ نَسِيَ وصية ربه ﷻ وغفل؛ قال الله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

وقال -سبحانه-: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٥٩)، وقال الألباني: صحيح لغيره.

وقال -سبحانه-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وقال ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:١-٥].

وعن ابْنِ عَابِسٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «**يَا ابْنَ عَابِسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أَوْ قَالَ:- أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟**» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ**»(١).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ آيَاتٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ**»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**»(٣).

فعن ابن عمر ﷺ كان يتعوَّذ يقول -: «أعوذُ باللهِ من الشَّيْطانِ الرَّجيمِ، أوْ أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ»(٤).

---

(١) رواه النسائي (٥٤٣٢)، ورواه أحمد (١٧٢٩٧)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه مسلم (٨١٤)، الترمذي (٣٣٦٧) وهذا لفظه.

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٣٤).

(٤) رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢١٤) حديث رقم (٢٤٥٧) موقوفًا عن ابن عمر، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢/ ٥٩)، وهناك رواية مرفوعة في مصنف عبد الرزاق عن أبي سعيد الخدري (٢٥٥٤).

وعن جُبيرِ بنِ مُطْعِمٍ قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ إذا استفتح قال: «**اللهمَّ إني أعوذ بك من الشيطانِ الرجيمِ، من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ**»(١).

وعن عثمانَ بنِ أبي العاص أنه أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الشَّيطانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وقِرَاءَتِي، يُلَبِّسُها عليَّ، فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقالُ له خَنزَبٌ، فإذا أَحْسَسْتَه فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، واتفُلْ على يسارِك ثلاثًا**»، فقال: فَفَعَلْتُ ذلك فأذْهَبَه اللهُ عَنِّي(٢).

وعن أَبِي التَّيَّاحِ، قَالَ: قُلْتُ: لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَنْبَشٍ التَّمِيمِيِّ، وَكَانَ كَبِيرًا، أَدْرَكْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ، فَقَالَ: إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَحَدَّرَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَوْدِيَةِ، وَالشِّعَابِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ بِيَدِهِ شُعْلَةُ نَارٍ، يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَهَبَطَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْ، قَالَ: «**مَا أَقُولُ؟**» قَالَ: «قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ»، قَالَ: فَطَفِئَتْ نَارُهُمْ، وَهَزَمَهُمُ اللهُ ﷻ(٣).

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٧٨٤)، وابن ماجه (٨٠٧)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٢٠٣).

(٣) رواه أحمد (١٥٤٦٠)، وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٧).

الرسالة الثانية :

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أُعْجُوبةُ حَرْفِ الباءِ في الْبَسْمَلَة

من المعلوم أن من أعظم معاني حرف الباء في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هو الابتداء.

فبسم الله تعني: بسم الله أبتدئ هكذا هي في اللغة، وهكذا جاء الاستخدام الشرعي للبسملة.

لذلك فنحن نقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ عند ابتداء الأكل، والشرب، واللبس، والنوم، ودخول المنزل، وإغلاق الأبواب وما إلى ذلك...

لكن ثَمَّةَ ملاحظةٌ دقيقةٌ تلك هي أننا نقتصر في الحالات التي ذكرناها على قولنا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، أما عند قراءة القرآن فنقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وما كان هذا التفريق بين القرآن وغيره -والله أعلم- إلا لأن القرآن رحمةٌ خالصةٌ فلَمْ يناسبْهُ إلا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، أما الأكل والشرب واللبس وما إلى ذلك فإنه ربما يكون رحمةً وربما لا يكون، لكنه على كل حالٍ نعمةٌ من نعم الله فاستحق أن نقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تعظيمًا لنعمة الله واعترافًا وشكرًا لله -سبحانه- فالتوقف هنا جاء عند اسم الله الذي يشمل كل أسماء الله الحسنى فتقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فقط، لِتَنَوُّعِ ما يُلقى في القلب من أثرٍ آثار ومقتضيات هي معاني أسماء الحسنى المتنوعة فكل عملٍ من أعمال الحياة المتنوعة بحسبه، أما في القرآن وفي الصلاة فليس ثمة إلا الرحمة، والرحمة بأبلغ معانيها ولذا جاء ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولما كانت رسالةُ سليمانَ عليه السلام لبلقيس هدايةً ورحمةً قال في أولها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، وقد جاءت نتائجها فكانت كما عَلَّق رجاءه بها سيدنا سليمان عليه السلام، ولذا كان أول ما لفت انتباه ملكة اليمن من موضوع تلك الرسالة هي [بسم الله الرحمن الرحيم]، وكانت هي أول ما عرضته على قومها من رسالة سليمان عليه السلام... علمًا بأن الملوك يعرضون أول ما يعرضون الموضوع.. ولا يظهرون اهتمامًا بالحواشي.

وأمرٌ آخر ينبغي أن ندَقِّقْ النظرَ فيه مرةً أخرى في حرف الباء من قوله -سبحانه-: [بسم]: وسنجد أن ابتداء الإنسان بشيءٍ يعني انتهاءه من شيء، ودخوله في شيءٍ جديدٍ يعني خروجه من شيءٍ قبله أو بناءه على شيء قبله، وفي كلتا الحالتين إنما يعني الشروع في شيء جديد.

وهكذا هي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ إنها شعار الانتقال في الإسلام، والانتقال في الإسلام لا يكون إلا إلى الأحسن والأعلى والأقوى والأفضل، أو بمثل ما مضى أما أقل فلا، كما قال -سبحانه-: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

فالبسملة عند ابتداء الأكل تعني أخذ الحاجة من الطعام للانتقال إلى حالة أفضل، كما قال موسى عليه السلام: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ [الكهف: ٦٢]، والبسملة عند ابتداء الشرب تعني الانتقال من العطش إلى الرِّيِّ، ومن حالة إلى أحسن قال -سبحانه-: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص:٤٢]، وقِسْ على هذا باقي الحالات التي شُرع في ابتدائها البسملة.

فإن قولنا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ تعني الانتقال إلى حال جديد، وتعني الفأل الحسن بجديد، كما تعني البشارة بجديد؟!

نحن لا نتحدث عن معنى أحرف ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في القواميس والمعاجم اللغوية، ولكنا نتحدث عن حقيقتها العظيمة التي شرعها الله لها، ونتحدث كيف ومتى شُرِع لنا استخدامها.

يا رب: إنا نبتدئ باسمك العظيم ﴿ٱللَّهِ﴾ فماذا نملك أمام آثار الجلال الذي تستشعره قلوب المحسنين إلا أن نقول:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ لِتُبَلِّغَنا رحمتَكَ الخاصة والعامة، العاجلة والآجلة، فجماع ذلك كله ومرجعه هو أنك أنت ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فنقول موقنين: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إعلان شروع الانتقال لما هو أكبر من ذلك، إنها تشرع للانتقال من حالة إلى حالة ومن عالمٍ إلى عالمٍ.

أفي هذا غرابة؟

فمتى يُشرع أن نقول: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا**»[(١)]، ومتى يشرع أن نقول: «**بِسْمِ اللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ**»[(٢)]، أيُّ انتقالٍ لعوالمَ مِثل هذا الانتقال ومثل هذه العوالم؟!

أَنَسِينَا أنه اسم الله؟!

فإن لم نتصور بعد هذه الحقيقة فلنجب: ما أعظم وأشمل تغييرٍ حدث لوجه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٩٩٠)، وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الواحد الحداد -وهو ابن واصل-، فقد روى له البخاري متابعة، وهو ثقة، ورواه الطبراني في الكبير (٢٣٠٤)، وصححه الهيثمي في المجمع (٤٢٤٣).

الأرض كلها؟ أليس هو طوفانَ نوحٍ عليه السلام؟ فما أول كلمة أمره الله أن يقولها إذا رأى رُكَّابَ سفينته بأنواعهم الشاملة وقد اكتمل العدد: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود: ٤١]؟!

إذًا أليس القرآنُ الكريمُ هو كتابَ التحوُّلِ الأعظم للحياة والأحياء؛ من الموت إلى الحياة، من الظلمات إلى النور، من النار إلى الجنة، كما قال -سبحانه-: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]؟ فبأي كلمةٍ ابتدأ أعظم كتاب أخرج خير أمة؟ لقد ابتدأ بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وعلى هذا الأساس تأتي البسملة قبل ابتداء السور القرآنية، فكلُّ سورةٍ حياةٌ جديدةٌ، وبشارةٌ جديدةٌ، وأما سورة التوبة فاستثناء له حكمته العظيمة.

فهنا يجتمع أعظم انتقال بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ إلى أعظم رحمة في كل دار، وكل حالة، وكل شيء بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فهل من شيء أعظم فَأْلًا من ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟!

بل أي شروع بمشروع في فضلِ الله وفي رحمته أكبر من ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فهل عرفنا لِمَ كانت راحةُ النبي ﷺ في الصلاة، وكيف لا تكون وهذا ابتداؤها، وهل راحة النبي ﷺ كانت لمجرد تحوُّل نفسي وإحساس شعورٍ عاطفي فقط؟!

فإذا كان هذا أولها، فكيف بها كلها... كيف بالقرآن كله؟!

ماذا تفهم حين تسمع كلمة (اسم)؟

ربما قال البعض: إن الاسم هو مجرد أحرف ذات معنى يحملها كل فرد من الأفراد للدلالة على ذاته، وربَّما يحمل الشخص اسمًا حسنًا ولكنِّه لا يحمل من معاني اسمه إلا القليل، وربما تكون شخصيته معاكسةً لحقيقة اسمه.

فمقدار كل اسم بما يحمله من حقيقة.

ولقد حرص المشركون على أن يُطلِقوا على آلهتهم أحسن الأسماء، فعاب الله عليهم كونها أسماء مجردة لاحقيقة لها ولا سلطان، فقال -سبحانه-: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣].

أما أسماء الله فهي الأسماء الحسنى التي تحمل السلطان المطلق، لأنها الحق المطلق وأي شيء أعظم من الحق -الله ﷻ-؟!

فقال سبحانه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وقال: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤].

بسم (الله) الرحمن الرحيم: حقًّا إنه اسم، ولكنه اسم (الله)!

فاسم (الله) هو الاسم الذي يُسبَّح به، كما قال -سبحانه-: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

ويُتَبارَكُ باسمه: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

ويُستعان باسمه: «يا حي يا قيوم».

وتَحِلُّ الذبيحة والصيد باسمه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، «بِسْمِ اللَّـهِ والله أكبر».

وتُبتدَأُ الفتوحُ العظمى باسمه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ﴾ [النمل: ٣٠].

ولقد صَحَّ في الحديث عن النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي أَوَّلِ يَوْمِهِ، أَوْ فِي أَوَّلِ لَيْلَتِهِ: بسمِ اللهِ الذي لا يضُرُّ مع اسمِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، وهو السميعُ العليمُ، ثلاثَ مرَّاتٍ، لم يضُرَّه شيءٌ في ذلك اليومِ، أو في تلك الليلةِ**»[(١)].

لأنه الاسم ذو السلطان الذي يعرفه كل الوجود فلا يقترب ضررٌ ممن تحصَّن بهذا الاسم، ولذا فإنك حينما تستعيذ باسمه فإنك ترسل رسالة حفظ لنفسك بالاسم الذي يعرفه مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض فإذا ما قلت: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه، أي: وأنا مع اسمه، إذًا فلا يضرني شيء.

فإذا ذُكر اسمُ اللهِ على باب وأُغلق لن تتمكَّن شياطينُ الجنِّ من فتحه، ولن تتمكَّن الشياطينُ أن تؤذي نائمًا لوحده قد ذكر اسم الله عند نومه، ولا ترى الشياطينُ لشخص عورةً ذكر اسم الله وما إلى ذلك.. وهكذا إذا وضع ثوبه وذكر اسم الله -عند وضعه- عليه، أو وضع ماله، أو أي شيء، فقال عند وضعه: باسم الله، لم يمسَّه الشيطان ولا يستطيع.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وأحمد (٤٧٤) واللفظ له، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه أحمد شاكر.

فلنتعرف عند الابتداء على عظمة من ذكرنا أسماءه الحسنى في أول صلاتنا

لقد قلنا الآن: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ومع أنني لا أريد الدخول في الخلافات الفقهية إلا أنه يحزُّ في نفسي كثيرًا المنهج الذي عمَّ المساجد من هجران شبه كامل للجهر بـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والتشنيع على من جهر بها وبالأخصِّ في أول الفاتحة، رغم أنه قد صَحَّ عَنْ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ: أنه صَلَّى مَعَ مُعَاوِيَةَ صَلاةً جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ فَلَمْ يَقْرَأْ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بِأُمِّ القُرْآنِ وَلَا بِالَّتِي بَعْدَهَا، وَلَمْ يُكَبِّر حِينَ يَهْوِي، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ نَادَاه مَنْ حَضَرَ ذَلِكَ مِن المهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ: يا مُعَاوِيةُ أَسَرَقْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ؟ فَمَا صَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ صَلَاةً إِلَّا جَهَرَ بِهَا بِـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لِأُمِّ القُرْآنِ وَلِلسُّورَةِ التي بَعْدَهَا وَكَبَّرَ حِينَ يَهْوِي سَاجِداً[1]، وقد قال النووي في الوجه الثالث: ما اعتمده الإمام الشافعي من إجماع أهل المدينة خلافًا لما ادَّعته المالكية من الإجماع، قال الشافعي: أخبرنا عبدالمجيد.. وذكر الحديث السابق بإسناده قال النووي ﷺ: ورواه يعقوب بن سفيان الإمام، عن الحميدي، واعتمد عليه يعقوب أيضًا في إثبات الجهر بالبسملة، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث حسن صحيح على شرط مسلم، وسائر رواته ثقات متفق على عدالتهم، وهكذا قال البيهقي... ثم قال الإمام النووي: وقد حصل الجواب في الكتاب الكبير عما

(١) رواه الدارقطني في سننه (٢/ ٨٣) حديث رقم (١١٨٧)، وعبدالرزاق في المصنف (٢٦٤٠)، وحسنه ابن حجر العسقلاني في «موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر» (١/ ٤٩).

أورد في إسناد هذا الحديث ومتنه، ويكفينا أنه على شرط مسلم[١].

أترى معاوية لو كان مخطئًا للسُّنَّة لسكت عن خطئه هؤلاء الحضور، والمهاجرون والأنصار متوافرون بينهم؟!.

وصَدَقَ حَبْرُ القرآن عبدُاللهِ بنُ عباسٍ حين قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ اسْتَرَقَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ[٢].

أيها المصلي: تفكَّر كثيرًا... كررها ولو في صلاة النافلة، فلعله يستبين لك شيء من ذلك.

كرِّرها وتدبَّر، فإنه إن دخل في قلبك فيضٌ من نور جلال اسم الله فسوف يكون لك شأن آخر مع الله وفي الفاتحة خاصةً وفي صلاتك كلها.

كررها فإنك في ظل رحمة لا نظير لها إِنَّهُ (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**)، فلعلك تَنْطِفُ منها رحمةً وعلمًا، ولعلها تغمرك بخيرها الذي لا يُعَدُّ ولا يُحصى.

كرِّرها فهي آية من كتاب الله.

كرِّرها فلعل قلبك يَنْفُض غباره، ويُكشَف عنه حِجابُهُ، وتفتح له من هذا المقام أبوابه.

كررها فأنت عند الرحمة بل أنت في الرحمة بل أنت مع ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فإلى أين تريد الرحيل عنها، ألا إن للقلب يقظة.. فإذا ما استيقظ فأبشر بكل خير... فكيف إذا كان الاستيقاظ عند الابتداء.. عند البسملة؟

---

(١) المجموع شرح المهذب للإمام النووي (٣/ ٣٤٩).

(٢) رواه البيهقي في السُّنن الكبرى (٢٤١٣)، وقال ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر» (١/ ٤٨): رجاله ثقات لكنه منقطع.

اسم الله الأعظم ﷻ

أيها القلب قد آن لك أن تبتدئ حالًا آخر هنا: فهنا سلطان أسماء الله الحسنى.. أتدري أيها المنتظِر المتطلع ماذا يعني سلطان أسماء الله الحسنى؟! إن سلطان أسماء الله -سبحانه- هو سلطان الله -سبحانه-؛ فأنت حين تقول: يا حي يا قيوم، فأنت لم تنادِ اسمًا أو اسمين مُجرَّدَين، إنما ناديتَ اللهَ نفسَه -سبحانه- فالحي القيوم هو الله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وحقيقة الفارق بين منادٍ باسم الله ومنادٍ آخر بنفس الاسم؛ ليس بالأحرف التي نادى بها، وليس الفارق بين اسمٍ واسمٍ آخر من أسماء الله، وإنما الفارق بين ما حلَّ بقلب المنادي عن اسم الله وتصوره إذ هو ينادي واليقين الذي رسخ في قلبه وعين بصيرته التي تفتحت بالإحسان فكأنها رأت ماشاء الله لها أن ترى، ومنادٍ آخر لا يقينَ ولا إحسانَ ولا بصيرة.

فهذا ينادي: يا حي يا قيوم فتُزَلْزَلُ لأجل «**يا حي يا قيوم**» الجبالُ، وذاك ينادي: «**يا حي يا قيوم**» فلا تجد لندائه صدى حتى في صدره، هذا يهتف بربه: «**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**» فالله يخرجه من بطن الحوت في قعر المحيطات إلى ساحل النجاة ﷺ وذاك ينادي بنفس النداء ولا أثر ولا إجابة.

فالله -سبحانه- مع كل أحد مع كل منادٍ ويعلم بنفس كل منادٍ ينادي عليه فهو -سبحانه- لا تخدعه الألسنة ولا الأحرف إنما ينظر إلى الحقيقة، والحقيقة في هذا القلب إن كان صادقًا... إن كان مضطرًا... إن كان متضرعًا... إن كان مُبتهلًا حقًّا... والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»[(١)].

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

فأنت حينما تنادي: «يا حي يا قيوم» فالحي القيوم ليس اسمًا مجردًا ولا أحرفًا مسطرةً إنما تنادي «الله» الذي هو معكم أينما كنتم، وهكذا لو ناديت أي اسم من أسماء الله الحسنى فإن أي اسم لله إنما هو الله -سبحانه-.

ومن هنا يجب أن نعلم أن كل أسماء الله الثابتة هي أسماؤه الحسنى، وكل اسم من أسماء الله الحسنى هو اسمٌ أعظم، وليس من أسماء الله ما ليس كذلك أو ما هو دون ذلك - فليس في أسماء الله دون، إنما هي العظمة ومزيد العظمة، فالفارق في العظمة ليس هو في أحرف الأسماء، إنما الفارق هو في التعظيم الذي ثار في القلب عند الدعاء بها.

وربما يكون للقلب في لحظة مقام يقومه مع اسم الله «**الحي القيوم**» لا يقومه مع الأسماء الأخرى ويبلغ إلى ذاك المنتهى في التفاعل مع معاني «**الحي القيوم**»، وما أكثر ما يحدث عند المؤمنين مع هذين الاسمين الكريمين خاصة، وربما بلغ هذا الداعي المتضرِّع إلى القَسَمِ على الله بهذا، وربما بلغ -لا أقول: إلى غياب عقله، بل ولا فقدان مشاعره، وإنما- إلى انسجام مشاعره وعقله وإدراكه كلها في معاني «**الحي القيوم**» وآثار تجلياتهما فيذهل عن كل شيء سواهما فيلهج بالاسمين الكريمين ويلظُّ بهما ولا يزال حتى يُرِي اللهَ مِن عظمة اسم الله في قلبه وهو يهتف به، وعظمة يقينه باسم الله مع عظمة إحساسه بقرب الله منه، وكلما نادى زاد الاقتراب وزاد، والوصف يعجز عن بلوغ حال القلب في تعظيمه لاسم الله الذي ينادي به آنذاك، ولعله عند هذا التعظيم الذي لا يعلمه إلا الله -سبحانه- يحقق هذا العبد الحق فيفتح الله ﷻ له على اسم الله الأعظم وهو يدري وغالبًا لا يدري، كما هو شأن مَنْ نَبَّههم رسول الله ﷺ من الصحابة، ولا

أحسب أن الأمر يخلو من إحساس عميق في داخله بانجذاب نحو هذا الاسم الحسن أو ذاك إذا ما جاء ذكره أو دعا به.. لا يملك نفسه معه.

ويُخطئ من يظن أن الاسم الأعظم هو أحرف معينة، وإلا كيف يكون الاسم الأعظم واحدًا لا غير ومع هذا يثبت عن النبي ﷺ عدة أسماء على أنها الاسم الأعظم، ولو كان الأمر كما يحسبون إذًا فَلِمَ لمْ يسُمِّها الأسماءَ العظمى، وإنما سمَّاه الاسم الأعظم؟!

إن الاسم الأعظم ليس أحرفًا كريمة فحسب، إنما هو حقيقة عظمى إذا تطابقت تلك الحقيقة التي حلّت في قلبك مع أي اسم من أسماء الله كان ذلك الاسم هو الاسم الأعظم باعتبارك أنت وليس باعتبار كل أحد دعا بها، وكثيرًا ما تستقر تلك الحقيقة العظمى والفتح المبين في الاسم الأعظم الذي فُتِحَ لهُ فيهِ، ويرسخ هذا الأمر في قلب العبد، فإذا ما ذكر ذلك الاسم العظيم بلسانه أو استغاث به في أي مرة جديدة انبعثت تلك الحقيقة الأولى في قلبه فهاج الإيمان، وبلغ الإحسان ذروته نحو ربه ﷻ من خلال اسمه الكريم الذي عرفه وهيجه، وبعثه إلى مقام ذروة الإحسان، وكأنه يرى الحي القيوم مثلًا وهو الذي هتف به الآن من جديد وهكذا في كل هتاف جديد بالحي القيوم، أو يرى ذلك في ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧][1]، أو يراه في **(لا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ العَظِـيمُ الحَلِـيمُ، لا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الـسَّمَوَاتِ والأَرْضِ، ورَبُّ**

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ**»، ورواه أحمد (١٤٦٢)، وحسنه الأرنؤوط، وصححه الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٩).

العَرْشِ العَظِيمِ)[١]، أو كأنه يرى حقيقة هذا النداء الأعظم وما فيه في الاسم الأعظم في قوله: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أسأَلُك بأَنِّي أشهَدُ أَنَّك أنتَ اللهُ الذي لا إلهَ إلَّا أنتَ، الأحَدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكُنْ له كُفُوًا أحَدٌ)**[٢].

وكثيرًا ما يُبَلِّغ هذه الرواية، أو تلك، أو أية رواية أخرى، وأنه وجد الاسم الأعظم، فيظن السامع أو القارئ الجديد أنه عرف الاسم الأعظم، فيروي الرواية إلى غيره من الناس، فيردد الناس ما ردَّدَ هذا العارف لكنهم لا يفتح لهم كما فتح له ولا يستجاب لهم كما استجيب له! ولو أن الله ﷻ فتح على قلوبهم ما فتح لهذا، فأدركوا بقلوبهم ما أدركه هو بقلبه لبلغوا ما بلغ بإذن الله.

نعم إن الاسم عظيم، ولكن هل المعرفة كالمعرفة، وهل الإحسان كالإحسان، وهل تجلَّى الاسم لقلبك كتَجَلِّيه لقلبه؛ إن الفارق هنا.. فالحقيقة هي أن الفارق في الصدور، في البصائر وما تراه، أما ما تراه الأعين من أحرف أسماء الله الحسنى فاللفظ واحد والأحرف واحدة والجميع يستوي في قراءتها، كما يستوي في التلفُّظ بها، ولكنها كلها حسنى.

فلا تعلِّق قلبك بفلان وما فتح له من اسم الله الأعظم، ولكن علِّق قلبك بالله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥) عن ابن عباس ﷺ، قال: كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب يقول: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، ورَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ»، وأخرجه مسلم (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٩٦٥)، عَنْ بُرَيْدَةَ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَقَالَ: «**قَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**». وصححه الأرنؤوط، وصححه الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٨).

ﷻ وبما يفتح على قلبك، لتدرك ما يخصك أنت، ويخصّ قلبك فلكل واحدٍ مع الله في هذا الأمر خصوصيته التي جعلها الله بينه -سبحانه- وبين قلب عبده، فلا يدركها إلا هو وعبده هذا وحده دون سواه، وكأنها أخص العلاقةالخاصة بين الله ﷻ وبين عبده فلان.

وهنا تدرك لِمَ أصبح معرفة الاسم الأعظم اليوم في ظن الناس أشبه بالمستحيل!

لقد انصرفوا عن الحقيقة وعلَّقوا قلوبهم بالناس والحروف التي أدركوها، فحفظوا الاسم وحروفه حفظًا ولم يدركوا بعض حقيقته إدراكًا، فلهذا أصبح إدراك الاسم الأعظم يكاد يكون مستحيلًا في هذهِ الأزمنة، بينما أكثر من صحابي ﷺ قد قال النبي ﷺ له: لقد دعوت الله باسمه الأعظم والمقصود: ادع الآن تُجَب، وغير هذا كثير، والسر أن الصحابة أصحاب يقين ﷺ، فلم يتوقفوا عند الحروف وإن كانت كريمة، فالحروف الكريمة فجَّرت في القلوب نورًا ويقينًا... وفتحت بصيرةً وعيونًا، فتعلقت القلوب باسم الله ﷻ وبمعانيه وتجلِّياته وعظمته فلكأنها تراه -سبحانه- وقد امتلأت صدورها بأنوار وآثار تجلِّيات الله الحي القيوم، الله الرحمن الرحيم، أو الله العزيز الحكيم، الله الودود القريب، أو نحو ذلك فذهبت تُثني عليه وتمجِّدهُ وتدعوه، فأطْلَعَ الله رسوله ﷺ على بواطن مَنْ ذكر عنهم ﷺ فأخبرأَنهم بهذا الباطن أدركوا الحق المطلوب في الاسم الكريم.

وهنا التنبيه الذي لابد من التأكيد عليه وهو أننا مهما قلنا من شروطٍ لإدراك الاسم الأعظم لله، وأنه إذا بلغ العبد كذا، وأصبح قلبه كذا، وأصبح حاله كذا

وما إلى ذلك.. فإن ذلك صحيح لا ريب فيه، ولكن وبعد كل هذا وَقَبْلَهُ وَفَوْقَهُ هو: القدحة، أو الومضة، أو الولعة، كما تُسَمَّى في علم الكهرباء.. وهذهِ هي دعوة الله إليك؛ هي القبس المقدس الجاذب إليك لدخول الوادي المقدس، وهذهِ هي التي جعلت كل ما جَمَعْته من أسباب تُبْعَثَ فيها الحياة فيشرق قلبك باسم الله الأعظم.. هذهِ هي الروح التي سرت في كل ما ذَكَرْتَ لربك من ثناء ودعاء باسم من أسمائه وأنت لا تدري أنك مُنحت ذلك ربما، ولهذا نبَّه النبي ﷺ من كان يَدْعو بدعاءٍ معين ويثني بثناء معين أنه منح معرفة اسم الله الأعظم وهو لا يدري فيُنَبِّهه النبي ﷺ إلى الدعاء، فادع الآن.. الآن كما في الحادثة التي رواها أَنَسُ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَالِسًا ـ يَعْنِي ـ وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ وَتَشَهَّدَ دَعَا، فَقَالَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، إِنِّي أَسْأَلُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**تَدْرُونَ بِمَا دَعَا؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**»(١).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ يَرْفَعُهُ قَالَ: «**اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ: فِي الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه**»(٢) يعني: «**الحي القيوم**».

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة:١٦٢]، **وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ**

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٠)، ورواه أحمد (١٢٦١١) وصححه الأرنؤوط، ورواه الحاكم (١٨٥٧)، وصححه ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٢٥)، وقال مؤلف كتاب «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» د. إبراهيم علي السيد علي عيسى: إسناده حسن.

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾»[١].

ولهذا فإن ذروة العظمة في الثناءِ على الله -سبحانه- ودعاء الله ﷻ تجدها في ثناء ودعاء رسول الله ﷺ... فهل تدري ماذا أدرك قلب رسول الله ﷺ... إذ هو يثني على الله ويدعوه... إنه لا شك والله يدعوه باسمه الأعظم في كل مرة، فكل اسم يدع به رسول الله ﷺ هو الأعظم.. ما علمنا منها وما لم نعلم.. لتولُّد تلك الحقيقة في قلبه ﷺ عن الاسم الذي يدعو به.. **فباب الاسم الأعظم مفتوح، وهو أوسع باب، وطريقه أرحب طريق**.. وهو ليس أحرفًا محددة.. وهو كثير كثرة الأسماء الحسنى.. فلتتسابق الهمم القلبية.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولا يتعلَّل أحد بأنه اسم واحد لا يكاد يدركه في هذا الزمان من خَلْق الله أحد! بل هو كل اسم من أسماء الله وهذا هو ما يليق بها جميعًا.. فيفتح لعبدٍ في اسم، ويفتح لآخر في اسم غيره، كما في الحديث العظيم الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «**بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»[٢]، وقد شرحتُ هذا الحديث في موطن آخر والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٨)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٢) أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وصححه أحمد شاكر، وكذلك الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

يا عباد الله: إن الله أبرّ وأكرم من أن يضيِّق هذه المسألة العظيمة على أفرادٍ معدودين على عُمْر البشرية كله، وإن الله ﷻ لا يكره في الخُلُق كراهية الشُّحِّ والبُخْل والإمساك.... وحاشاه -والله- أن يجعل اسمًا من أسمائه الحسنى مخصوصًا عند فلان أو فلان يُدِلُّ[1] به على الخَلْق أو يُذلُّهم.. بل والله إن الله ﷻ قد بسط اسمه الأعظم أعظم البسط، إذ جعل أسماءه الحسنى كلها كذلك، إلا أن المنافسة هنا هي فيَّ أنا وفي نفسك... فأي خير يفيض مثل الخير الذي يفيض من أسماء الله الحسنى، فلا يغرنَّك كثرة ما قيل فَالله أكرم من ذلك، وأبرّ، وأرحم، وأقرب، وأحب، وأكثر وُدًّا.. والله لا يحجر واسعًا، بل يبغض ذلك، بل وسَّع الأمر، وبسط العطاء، وتركه للمتسابقين، وبدل الاسم الحسن والاسمين جعلها تسعة وتسعين اسمًا وأكثر.

تَقَدَّم واقرأ في أم الكتاب وأبشر بفتح الله ﷻ لك، أوليس الله من سَمَّاها [أم الكتاب]، أوليس الله إذا سمَّى سمَّى بحق وهو الحق المبين؟! أبشر بالفتح في أسماء الله الحسنى، أبشر بالفتح على اسم الله الأعظم، أبشر بالفتح في القرآن الكريم كله، أبشر بالفتح في مقامات جديدة، وفتوحٍ لا تنقطع أبدًا، أبشر وأبشر... ولتبشر الأمة كلها بالفتح عليها، فحريٌّ بكتابٍ جعل اللهُ الفاتحةَ فَتْحَهُ أن يفتح لها قريبًا، وحريٌّ بمن ابتدأ بفاتحة الكتاب أن يفتح له في كل الكتاب، وقَلِّبِ المعاني كيفما شئت فلن تفضيَ إلا إلى فتح... أرأيتَ كيف أن الفتح بالفاتحة.

---

(١) يُدِلُّ: يفتخر.

الرسالة الرابعة:
كُلُّ ما في أُمِّ الكتاب يَدُلُّكَ عَلَى [الله] ﷻ

هل شعرت أن كل ما في أمّ الكتاب يعرِّفك بالله؟

وأن كل ما فيها يناديك على الله، ويدعوك إلى الله؟

ربما تقول لي: قرأتها طوال حياتي ولم أستشعر هذا الذي تتحدث عنه!

أقول: ألا ترى في هذه السورة الضمائر الظاهرة والضمائر المضمرة وأنها كلها تحيل على «الله» ومقصودها هو «الله»؟

تعالَ معي نتساءل وسوف ندرك -بإذن الله- ما أريد جيدًا؛ باسم مَن ابتدأتْ «أمّ الكتاب»؟!

الجواب: باسم (الله) الرحمن الرحيم.

ولمَن رُفِعَ الحمد فيها؟

والجواب: (لله) رب العالمين.

فمَن المقصود بمالك يوم الدين؟

والجواب: هو (الله) سبحانه.

ولمن يعود الضمير في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟

والجواب: إلى (الله) وحده سبحانه.

ومَن المقصود الذي تُوَجَّه له الدعاء في قوله: ﴿ اَهْدِنَا اَلصِّرَٰطَ اَلْمُسْتَقِيمَ﴾؟

والجواب: نوجّهه إلى (الله).

ومَن المقصود بصاحب النعمة في قوله: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾؟

والجواب: هو (الله) سبحانه.

ومَن الذي غضب عليهم كما في قوله: ﴿غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم﴾؟

والجواب: هو (الله).

وأخيرًا.. فمَن المطلوب في قولنا: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ءَامِّينَ﴾؟

فالجواب: هو (الله)، لأن معنى آمين: اللهم استجب.

أرأيت كيف أن اسم [الله] ورد في أول هذه السورة مرتين صريحًا: «بسم الله» و «الحمد لله»، ثم أصبحت السورة كلها تُحيل على ما أعلن في أولها وهو [الله]؟

فهل تمر علينا هذه الحقيقة العظيمة بهذه القسمة الْمُحكمة دون أن نتفكر فيها، وهل عرضها الله -سبحانه- إلا لحكمة بالغة؟!

إن ضمائر الفاتحة الظاهرة والمضمرة تشهد شهادة حق بأن الله ﴿هُوَ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وأن الله أعظم من أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، ولقد عرفنا ما قرَّره الله من اجتماع علوه وقربه معًا، كما قال -سبحانه-: ﴿وَلَقَد خَلَقنَا ٱلإِنسَـٰنَ وَنَعلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِۦ نَفسُهُۥۖ وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ ٱلوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِنكُم وَلَـٰكِن لَّا تُبصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

﴿أَلَم تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

فلقد دلت «**السبعُ المثاني**» العبادَ على الله وَدعَتْهم إلى الله بكل طريقٍ.

وهل مقصود الكتب السابقة ومقصود القرآن الكريم إلا تعريف العباد بالله وعبادة الله وحده؟!

وهل مقصود كل الأنبياء والمرسلين ﷺ إلا دعوة الخلق إلى الله؟!

فهل أدركت كيف أن «أمّ الكتاب» هي الأم في الدعوة إلى الله كذلك؟

ها أنت قد رأيت كيف أن هذه السورة المباركة قد جمعت ذلك بأبلغ ما يَكون البيان وأكثر ما تكون الدعوة إلى الله تأثيرًا، وأشمل ما تكون أسلوبًا بيّنًا ظاهرًا... وباطنًا مستترًا، فسُبحان من سمَّاها: «أمّ الكتاب».

فهل أدركتْ قلوبُنا تجلِّيَ اللهِ في «السبع المثاني»، فماذا لو أفاقتْ قلوبنا لتجلِّي اللهِ -سبحانه- في هذه السورة إفاقةً كإفاقةِ الجبل لمَّا تجلَّى له ربه؟!

وهل أدركتَ أيها المستمع وأيها القارئ كم مرةً نَادَتْكَ «السبع المثاني» على الله وإلى الله -سبحانه-؟!

أصغِ سمعَكَ لأمّ الكتاب فلسوف تراها تناديك من كل أرجائها؛ الله الله الله الله.

فهل من تعريفٍ حقيقيٍّ وفعليٍّ أعظمَ وأوسعَ مِن تعريفِ اللهِ ﷻ نفسَه في فاتحة الكتاب؟!

وهل من تعريف مثله يتسع معك على حسب اتساع معرفتك بسورة الفاتحة؟

فهو تعريف مستمر ومتعاظم ومتصاعد أبد الآبدين.. تعريفٌ يمكن أن يزداد ويتوثق في كل قراءة لها، وفي كل لقاء بالله ﷻ.

و هنا حقيقة عظيمة غائبة تتقرر من خلال معرفة الفاتحة وهي أن أسماء الله -سبحانه- كلها حسنى، وكلها سواء، كما قال -سبحانه-: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، لا فرق أبدًا لأنها كلها [الله] -سبحانه-، لكن الذي حفظه الله في الفطر السليمة هو أن [الله] هو [الله] وكفى، أي أنك إذا قلت: (الله) فإنك لا تقول أحرفًا صوتًا باللسان وتتوقف عند حد الأحرف وصوتها، بل هو الله الذي هو أقرب إليك من لسانك الذي نطق باسمه -سبحانه-، وأذنك التي سمعت اسمه -سبحانه-، وقلبك الذي فكَّر به -سبحانه- لأنه أقرب إليك من حبل وريدك أنت.

ولهذا كانت كلمة «الله» تأتي أولًا في التعبير عن «الله» الحق المبين، فقد جاءت أولًا في الفاتحة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وبعد (الله) تأتي الأسماء الحسنى.

ولذا قال -سبحانه- لموسى أول ما قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، وهكذا البداية بالأذان بـ الله، وختامه «الله»، والبداية بالصلاة «الله» وختامها «الله»، هذا هو المنهج الحق، وهذه أعظم أولوياته في معرفة الله -سبحانه-.

فمع أن كل الأسماء الحسنى هي لله -سبحانه-، وهي الله -سبحانه- إلا أن كلمة «الله» أولًا وقبل كل الأسماء الحسنى؟؟

فإن ما شرعه الله في هذا المنهج هو ما ادخره الله وقرره في الفطر السليمة يوم

أن عرَّفها -سبحانه- بنفسه، ولذا فهو الذي الآن نعرفه ولا نعرف سواه، وهو الذي تنطق به الألسنة وتكتبه الأقلام.

فلا تنجذب القلوب إلى كلمة انجذابها إلى كلمة «الله» خاصة، ولا تعريف لكلمة «الله» أعظم ولا أوضح من أن تقول: الله: هو الله، وبعدها تقول ما تشاء مُعرِّفًا كقوله -سبحانه-: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]، لكن تبقى الكلمة الأولى هي [هو الله].

إنك حين تدعو باسم «الله» لا تشعر أنك تدعو غائبًا، بل تدعو حاضرًا قريبًا سميعًا مجيبًا.

فسبحان من جعل تعريفه سبحانه أنه (الله) ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وهنا تأتي الغاية التي ندندن حولها في هذهِ الرسالة وهي: معرفة الله -سبحانه-، فإن معرفة الله ﷻ لا تتحقق بمجرد القراءة عن الله ولو قرأ العبد ألف ألف صفحة عن الله -سبحانه-، ولا تتحقق حتى لو حفظ العبد ما حفظ من أسماء الله الحسنى وسردها عن ظهر قلب ألف ألف مرة.. إنها لن تتحقق حتى يُعَرِّفك الله -سبحانه- هو بنفسه.. ولكن كيف يعرِّفك -سبحانه- بنفسه إذا كان قلبك لم يَطلب معرفة الله -سبحانه- من الله ﷻ صادقًا متشوِّقًا متحرِّقًا.. إذا لم يطلبها بإلحاح وضراعة واضطرار؟!

إن الأمر لا يحتاج منك إلى أن تعتزل في غارٍ ولا كهف، ولا إلى أن تقطع

صحراء سيناء وتمر بالطور فتُنادَى من الوادي المقدس... **عندك فاتحة معرفة الله - [فاتحة الكتاب] - وعندك المنتهى وهي [أم الكتاب]**... وبين يديك [السبع المثاني] والتي لولا فضل الله على رسوله ﷺ فلن تبلغها ولو شربت البحار السبع الدهاق، أو طويت الآفاق، أو جاوزت السبع الطباق! إنها [السبع المثاني والقرآن العظيم] فدونك الاجتهاد والمجاهدة، ودونك التدبر والتفكر، ودونك التزلُّف والتملُّق لله بها.

يحسب البعض أن معرفة الله ﷻ كأي معرفة...!

لا والله؛ فليست معرفة الله كأي معرفة، وليست خسارةٌ في الحياة مثل ذهابها دون معرفة الله ﷻ، لقد بيَّن الله -سبحانه- حال أناس في أول لحظة عرفوا فيها الله، وعرفوا رسوله ﷺ، وعرفوا كلامه، وماذا صنعت بهم المعرفة للوهلة الأولى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥].

فلما كانت هذهِ السورة هي (أم الكتاب) فهي إذًا الأم... والمرجع في معرفة الله في الكتاب كله، فلا تفوتنك وأنت في ظلالها.. وأنت في رحابها... قبل أن تغادرها، ولا تيأس ولا تمل من كثرة القراءة والإعادة.. وكثرة تكرار السورة وتدبرها وزيادة.. ولا تمل من تكرار قراءتها مع تنوُّع الرجاء بها، وسؤال الله بها.. فكم من بركاتها وأنوارها لا تتفجَّر إلا بين يدي الله، وكم من مثناها لا يتفتَّح إلا بين يدي الله.. ذلك أن الله وحده هو من يفتح لمن يشاء ما ثنى منها عما ثنى فيها.

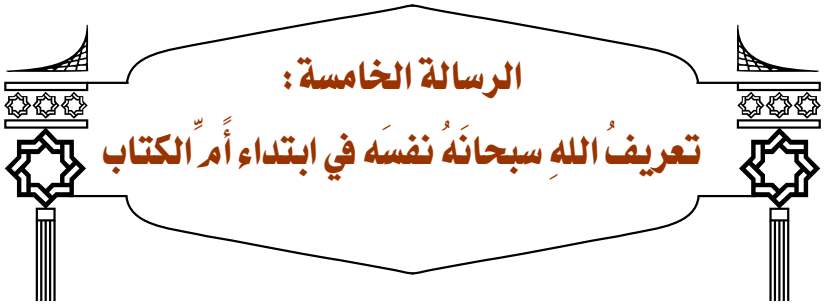

الرسالة الخامسة:
تعريفُ اللهِ سبحانَهُ نفسَه في ابتداءِ أمِّ الكتاب

يا قارئَ أمِّ الكتاب: اسمع مرادي بعد أن تقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

مرادي هو أن ترفع الآن للحظة واحدة فقط الكلمة الأولى من البسملة، ثم تنظر ماذا سيظهر لك؟!

إنه ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ذلك هو تعريف الله ﷻ لنا بنفسه عند أول كل لقاء لنا في الصلاة.

هل تذكر ماذا قال الله لموسى عليه السلام حين ناداه في الوادي المقدس أول اللقاء؟ لقد قال الله له معرِّفًا نفسه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وهكذا هي البداية.

إن هذا التعريف الإلهي في الصلاة إنما هو تعريف أثناء لقاء الله -سبحانه-، وإنه لقاء بعد نداء، وإنه نداء للقاء في أقدس بقاع الله على الأرض وتمت أديم السماء، فانظر فمن نظر وتدبَّر أدرك كيف يُعِدُّ الله لنا الأجواء، والمكان، والنداء، لندرك عظمة اللقاء.. وكأنه إعداد موسى عليه السلام للقائه ذلك اللقاء الحق؛ فهو نداء، ويسمِّيه الله بلفظ النداء سواء في لقاء موسى أو في النداء للقائه بالصلاة، فقال -سبحانه-: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وأما نداء الله لنا فقد فقال -سبحانه-: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٥٨] فكلا اللقاءين بعد نداء. **هذا أولًا.**

وثانيًا: أنه نداء في موضع مقدَّس، فقد كان مكان اللقاء الربَّاني لموسى عليه السلام محدَّدًا فقد قال -سبحانه- لموسى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، وأما نحن فقال -سبحانه-: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فهي بيوت الله وأقدس البقاع في أرض الله كما قال النبي ﷺ: «**خَيْرُ البِقَاعِ المَسَاجِدُ**»(١). وإنها دعوة منزَّلة من عند الله عز وجل للقائه في بيته، ثم يبتدئ اللقاء الحق بكل تفاصيله كما كان لقاء الله عز وجل لموسى، وكلامه له، ودعاء موسى ربه، واستجابة الله دعوته، وإرساله بعد اللقاء مباشرة برسالته؛ وهكذا وهكذا.

ثُمَّ إن موضع كلام الله لموسى عليه السلام كان الشجرة في الوادي المبارك، وأما صلاتنا فقد كانت مشروعيتها عند سدرة المنتهى.

وهل نحتاج إلى تكلُّف الربط ما بين لقائنا ربنا -سبحانه- في صلاتنا بكلامه الكريم وقرآنه العظيم مع لقائه وكلامه -سبحانه- لموسى عليه السلام، وقد ربط لنا ربنا -سبحانه- هذا الأمر ربطًا ظاهرًا لا يحتاج إلى كثير استنباط في أول سورة طه، فقال -سبحانه-: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢]، فالبداية بالقرآن العظيم، لا بموسى عليه السلام، ولا بلقائه، ولا بكلامه -سبحانه- لموسى، إنما بكلامه لنا.

وهكذا أكَّد الله عز وجل هذا الربط وأن اللقاء هنا لقاءنا، وأن الكلام معنا فأنتم يا أهل القرآن الآن الأصل فتأمَّل سورة النمل، فقال -سبحانه-: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥٩٩)، وقال ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر» (١/ ١١): حسن صحيح.

﴿ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٦-٧]، أرأيت كيف قدَّم الله ﷻ القرآن على كلامه موسى ﵇، أرأيت كيف قدَّم الله ﷻ تلقِّي رسول الله ﷺ للقرآن على كلامه لكليمه موسى ﵇... إن هذا القرآن شأنه لعظيم، ثم لا شيء أعظم في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن من أم القرآن.

فهل أدركنا الآن بعض عظمة الابتداء بالبسملة، وعظمة التعريف بهذه الأسماء الحسنى الثلاثة؟ تلك هي بداية اللقاء؛ إنه: ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ومع هذا أقول: فلا واللهِ لن يدركَ عبدٌ هذهِ العظَمةَ بأذنيه ولا بعينيه دون إدراك قلبه.

فحين يجعلنا الله ندرك من جلال اسم ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ماندرك سوف ترى بصيرتنا شيئًا آخر.

أليس أعلى الدرجات هو أن تعبد الله كأنك تراه، فاعلم أن هذا موطن من أعظم مواطن منزلة الإحسان العظمى.

إنه مجال أبعد ما يكون أن يتساءل فيه متسائل فيقول: كيف؟ فهو أمر تفهمه الروح التي هي «من أمر ربي»، ويتشربه القلب الذي نزل عليه القرآن أساسًا، ومنه يفيض -والله أعلم-، ويتجاوب معه العقل فيرسل إشاراته إلى الأعصاب فيستنفر، وإلى الجلد فيقشعرّ، وإلى الشعر على الجلد فينتبر، وأحيانًا إلى العين فتفيض وتقطر بصدق الدموع وتنهمر.

والآن هل أدركنا ماذا قال الله لنا؟ لقد قال الله لنا: إنه أنا ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، هكذا قال الله لنا فكيف لا تندفع الأمراض خارج قلوبنا، وكيف لا تَنفِي صدورُنا

خَبَثَها، وكيف لا تطهرها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تطهيرًا، فهل من شيءٍ أجلَّ وأعظمَ وأعلى وهي في حال اللقاء الأوحد لها على هذهِ الأرض من اسم ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

إن اللقاء مع الله الذي لا إله إلا هو ليضفي على معاني هذه الأسماء في قلوب العباد مهابةً وجلالًا لا يضفيه غير اللقاء.

هنا تتفاوت الرؤية في مقام [كأنك تراه] بتفاوت الاقتراب، وهذا الاقتراب واللهِ لن يكونَ حتى يفتحَ اللهُ بصيرتَك على الحق... حتى يدنيَك -سبحانه- منه ويدنيَك، ويقرِّبَك، كما قال -سبحانه- لحبيبه ﷺ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، وما قال له تقرّب وإنما: ﴿وَٱقۡتَرِب﴾.

فيارب اجعلنا نعبدك دائمًا كأننا نراك سبحانك دائمًا

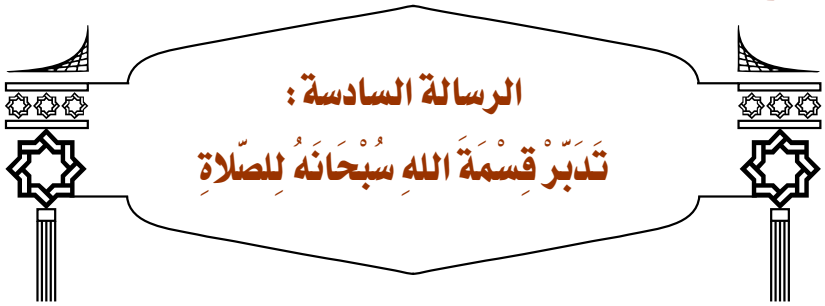

الرسالة السادسة:
تَدَبَّرْ قِسْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ لِلصَّلاةِ

تدبر هذا الحديث القادم الأعظم، اقرأه مرارًا وتكرارًا، اقرأه في فترات متقاربة ومتباعدة، وكل مرة سوف ترقى حين تقرأ السبع المثاني بإذن الله تعالى.

سوف يعرج قلبك في مدارج القرب إلى الله، ويأوي إلى مقامات أعلى وأعلى وأعلى -بإذن الله-.

هَاكَ الحديثَ العظيم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ**» ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: «**اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ**»؛ فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

هل رأى الخاشعون سورةً فيها من التجاوب الفوري بين الله رب العالمين وبين كل عبدٍ من عبيده غيرها؛ فالعبد يقول والله -سبحانه- يقول مجيبًا كما هو الشأن في أم الكتاب، وهو منصوص عليه في الحديث الصحيح؟!

هل رأى المتأمِّلون سورةً غيرها يسميها الله -سبحانه-: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٨٣]، فيقول كما في الحديث: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفين**»(١)؟!.

هل رأى المتفكِّرون سورة يقول الله فيها للعبد: «**هذا بيني وبين عبدي..**» أي يجعلها الله -سبحانه- بفضله ومنِّه وكرمه منهجًا بينه وبين عباده إلا أمّ الكتاب؟

هل رأى الداعون المتوسِّلون إلى ربهم سورة هي صمام الأمان لهذه الأمة من غضب الله ولعنته مثلها؟! حقًّا إنها الضمان، أوليس دعاؤها الصريح: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقد قال الله: قد أجبت(٢).

هل رأى العالمون سورةً يجتمعُ الناسُ على قول: (آمين) في آخرها وبصوتٍ عالٍ وواحد بل متَّحدٍ غير أمّ الكتاب، ففي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إذا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُه تَأْمِينَ الملائكةِ غُفرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٣).

هل رأى أولو الألباب سورة يتحقق فيها الارتباط الفعلي بين المصلين من أهل الأرض وبين المصلين في السماء، أو المُؤَمِّنين من الملائكة على قراءة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥) بلفظ: «هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

(٣) رواه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).

المصلين جماعة من أهل الأرض إلا «أمّ الكتاب»؟! أمْ أنّا نجده في غير تأمين سورة الفاتحة..؟!

هل رأى المؤمنون المنصتون المستمعون للقرآن العظيم كله سورةً يَسْكُتُ النبيُّ ﷺ بعدما يقرؤها في صلاته كي يقرؤها كل مصلٍّ بعدما استمع إليها كاملة إلا «أمّ الكتاب»؟!

في حديث الحسن البصرى أن سَمُرَةَ بنَ جُنْدَبٍ وعِمْرَانَ بنَ حُصَينٍ تذاكرا، فحدَّثَ سَمُرَةُ بنُ جُندَبٍ أنه حَفِظَ عن رسولِ اللهِ ﷺ سَكْتَتَينِ: سَكْتَةً إذا كَبَّر وسَكْتَةً إذا فَرَغَ مِن قِرَاءَةِ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَحَفِظَ ذلك سَمُرَةُ، وَأَنكَرَ عَلَيهِ عِمْرَانُ بنُ حُصَينٍ، فَكَتَبَ في ذلكَ إلى أُبيِّ بنِ كَعْبٍ -فَكَانَ في كِتابِه إليهِمَا- أَوْ فِي رَدِّهِ عَليهِما، أَنَّ سَمُرَةَ قَدْ حَفِظَ»(١).

فلو كانت كغيرها من القرآن لما سكت النبي ﷺ لأجلها، أَوَليس الإمامُ يتحمل عن المأمومين؟ فلِمَ لمْ يتحملِ الإمام الفاتحة؟ ولِمَ قال النبيُّ ﷺ حين نازعه البعض بالقرآن في صلاة الفجر: فلا تفعلوا إلا بأم القرآن، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «**صَلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الغَداةِ، فثَقُلَتْ عليه القِراءةُ، فلمَّا انصرَفَ قال: إنِّي لأراكم تَقرَؤونَ وراء إمامِكم، قُلْنا: نعمْ، واللهِ يا رسولَ اللهِ، إنَّا لنَفعَلُ هذا، قال: فلا تَفعَلوا إلَّا بأُمِّ القُرآنِ؛ فإنَّه لا صَلاةَ لمَن لم يَقرَأْ بها**»(٢)؟!

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٩) واللفظ له، وابن ماجه (٨٤٥)، وأحمد (٢٠٠٨١)، وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

أخيرًا: هل رأى المتدبِّرون كيف جعل الله قراءتها فرضًا لازمًا ملازمًا للمسلم في كل وقتٍ وحينٍ تُقام فيه الصلاة؛ إذ فرض الله قراءة سورة الحمد في كل ركعة من ركعات الصلاة على كل مسلم أيًّا كان؛ أكان في جماعة أم كان منفردًا؟!

والحقيقة العظيمة، والمطلب الكبير هو: هل رأينا نحن كيف أن الله ﷻ قد عرض [أم الكتاب] على العقول البشرية كلها، فأصبحت العقول بهذه الفرضية الممنهجة كلها مأمورة أن تأتي وتتدبَّر كيف شاءت وإلى أبد الدهر، وتغترف كل وقتٍ وحين، وفي كل صلاة من بحور فاتحة الكتاب فهل تجد فيها من فطور، وهل تجد فيها من ملل، وهل تجد فيها من خلل، وهل ينقص منها من شيء، وهل تشبع منها العقول، وهل لذَّة الأُذن مع استماعها تتناقص وتضمحلّ؟!

هل لو جمعنا كل المسلمين منذ عهد رسول الله ﷺ حتى آخر مسلم على هذه الأرض، وجمعنا كل صلواتهم، وحسبنا أعداد كل ركعة صلاها العباد لله، وفَرَضْنا أنَّ كلَّ واحدٍ في كلِّ ركعةٍ تَفَكَّر في أم الكتاب، وَوَصَلَهُ من نورها وبركتها وهداها وتزكيتها ما لم يصل غيره ولو لمرة واحدة في كل حياته.. وليست بعد هذه الحسبة من قلة... لرأيت أن أم الكتاب مازالت البحر الزاخر الذي أروى عقول الخلق وقلوبهم وهي مازالت كما هي لم تنقص، بل تزيد وتفيض إلى ما لا نهاية له مطلقًا، إنها شيء آخر.

ثم هل رأينا أي زادٍ لهداية الخلق فوَّتناه حين فاتت علينا دراسة سورة السبع المثاني والقرآن العظيم سورة [أم الكتاب] و[أم القرآن] الدراسة الحقَّة؟! سائلًا الله ﷻ أن ما سيأتي في الأجزاء القادمة سوف يكون شيئًا آخر -بإذن الله-.

فيا أيتها القلوب والألباب تفتَّحي فقد جاءك ما لَمْ يأتِ أحدًا مِنْ قَبْلِ هذه الأمة أبدًا، ويا أيتها القلوب اطمئني وسوف تجدين حاجتك كلها وفوق حاجتك، ولن ينقص من أم الكتاب شيء إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا وَضَعْتَه في البحر ثم رفعته.

وهل أشرنا نحن -بهذه الأسئلة- لكل ما في الفاتحة إلا مجرد إشارة؟!

إن وراء هذه الأسئلة السابقة استنفارَ نفوسِ القرَّاء إلى المعرفة الحقة، وأما المعرفة المجردة ومعاني الكتاب اللغوية.. وما يتبع ذلك من اشتقاقات مما قد اعتدناه من بناء التفسير على الاشتقاقات اللغوية لا على الآيات ومعانيها المباشرة، فإنها لا تعني عندنا أكثر من علم نظري، وتوسُّع لُغَوِيّ، وأفكار معرفية، تبقى الحاجة إليها ضرورية أحيانًا إلا أنها محصورة محدودة من ناحية المعاني والأثر ولا تتجاوز موضع اللفظ وأحرفه العربية، ويبقى كلام الله مطلقًا نوره وعلمه وخيره وبركته وهداه... والغريب أن الناس يتعاملون مع القرآن العظيم وكأن اللغة العربية هي البحر المحيط بالقرآن، وهي سماؤه وأرضه، وهي وهي.. نعم إنه بلسان عربي مبين.. لكن هاتوا كل قواميس اللغة العربية وأشعارها وأمثالها وخطبها، ثم هاتوا ما فيها من نور أو هدى أو رحمة أو بركة...! إنك في اللغة العربية تجد كل ما في البشر من نقص البشر ومزاياهم، فلقد عَظَّموا اللغة العربية وكأن الفضل لها على كلام الله..! ووَسَّعوا وتوسَّعوا فيها حتى جعلوها هي البحر الذي يُغترف منه كلام الله..! وأصبح الناظر لها وكأنه يرى القرآن مفردة من مفرداتها هي، وكأن كلام الله قطرة من قطراتها..! فهل تهدي اللغة العربية قلبًا، كيف ومن شعراء العرب وعلمائهم ضالُّون، هل في اللغة العربية إعجازٌ بغير القرآن، وكأن الله ما تحدَّى العرب بلغتهم وكل

مقدرتهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن؟! ألم يأمر الله ﷻ المسلمين أن يُبَلِّغوا القرآن للناس كافة... فكيف يُبَلِّغونهم وأكثرهم لا يعرف العربية؟! إنه يحمل نوره وهداه وبركته ورحمته وإعجازه بذاته.. فلا تُقَيِّده لغة وهو يخاطب الفطرة الخالصة والعقل السليم بمجرد ترجمة معانيه.

نعم لقد اختار الله اللغة العربية لتكون هي لغة القرآن ومن هنا جاءها الشرف، وهو -سبحانه- خالقها كما أنه خالق كل اللغات فهو القائل -سبحانه-: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، لكن السؤال هو ماذا سيكون مصير اللغة العربية لولا القرآن.. وأنتم ترون الجواب حين ترون ماذا حَلَّ بالأمة العربية نفسها التي لا تملك مواردها ولا حماية ما رزقها الله ﷻ؟!

إن اللغة العربية بكل أشعارها ومُعَلَّقاتها وخطبها وبلاغتها.. تبقى مصبوغة بصبغة البشر... حالها في ذلك حال من خرجت منه، أما القرآن فالقرآن شيء آخر.. ومعاذ الله أن يَحسب البعض أن القرآن تراث اللغة العربية، بل الفارق بينه وبين تراث كل العرب وغير العرب هو ما قاله الله ﷻ في الحديث القدسي: «وفضلُ كلامِ اللهِ على سائرِ الكلامِ، كفَضلِ اللهِ على خلقِهِ»(١).

هنا في كلام الله الوحي، فأين الوحي في أفصح شعر العرب والنبي ﷺ يقول: «ما مِن الأنبياءِ نَبيٌّ إلَّا قد أُعطيَ مِن الآياتِ ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كان الَّذي أُوتيتُ وَحْيًا أوحاه اللهُ إليَّ، فأَرجو أنْ أكونَ أكثَرَهم تابِعًا يَومَ القِيامةِ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: حسن غريب، وقال الشيخ أبو إسحاق الحويني في تعليقه على كتاب فضائل القرآن لابن كثير: والحديث حسن بجملة هذه الشواهد ص ٢٧٤.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) واللفظ له.

لقد بالغ البعض حتى جعل اللغة العربية قيدًا على فهم القرآن، مع أن من آياته العظمى أنه سَهْلٌ ميسَّر يفهمه كل أحدٍ إلا ألفاظًا نادرة معدودة محددة، وهي نفهم عادة من السياق، والله ﷻ يؤكد هذا الأمر وهو أعلم بما يُنزِّل: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:١٧].

وإن الإبحار في تفسير القرآن باللغة العربية والإيغال فيه بعمق ليُقَسِّي القلب والقرآن يُرَقِّقه، ويُثمر المَلَلَ والقرآن لا يُمَلُّ، ويبعد عن الهدى والقرآن هدى، ويُظلم الفهم والقرآن نور، ويُضيِّع الأوقات والقرآن عمل صالح بركة، ويُكثر الخلاف والجدال والحرج وليس في كلام الله حرج.. وهكذا، فَغَيَّرَ هذا التأويل غايات القرآن العظيم وأبعد الأفهام عن تحقيقها، وما لهذا جعل الله أُمَّ القرآن، ولا لهذا أنزل القرآن الكريم.

إن فِعْل الفاتحة بالقلب إنما هو الفعل الأعظم لأنها السورة الأعظم، ولأنها الأم من بين جميع سور القرآن الكريم، ولأن تجاوب الله –سبحانه– مع قارئها فِعْلِيٌّ وحاضرٌ وحقيقيٌّ ليس مثله تجاوب في كلام الله كله، فلا يمكن لعباد الله إلا أن يستجيبوا لله، ولمَّا أن أدبروا عن الله اليوم وطال عليهم الأمد، فلا بد أن تكون فَيْئَتُهُمْ بفاتحة الكتاب، ولا بد أن يكون فتحهم الجديد بفتح الله لهم بفاتحة الكتاب، ليتبعها الفتح في بقية السور، وبعدها: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر:٢].

فلأنها فاتحة الكتاب فلابد أن يكون لها من اسمها كل النصيب، ولن تكون كذلك لو لم يكن افتتاح إياب الأمة بها، ومنها، وفيها..

ولأنها «أمّ الكتاب» فمقام الأم قبل مقام أفرعها، كما أن وجودها أولًا ثم وجود أفرعها.

أفتعجز أمُّ الكتاب عن إعادة الدنيا كلها ثانيةً إلى عهدٍ «عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ»(١)؟!

قد رفعت الخطاب، فمتى أسمع الجواب؟

وبعد هذا الحديث القدسي الأعظم يأتي السؤال: هل رأيت قسمةً أربحَ للعبد من هذه القسمة... قسمةٌ بينه وبين الله رب العالمين ﷻ؟!

سبحان الله: ففي هذا الموضع أنا العبد قد قلتُ، والله -سبحانه- قد أجابني على الفور وقوله الحق... وكلا القولين قوله تبارك الله رب العالمين!

لكن أتدري أيها المصلي: متى سيستمع قلبك للجواب؟ عندما يرسل الله له الخطاب، ويوقظه لسماع الجواب.

إن الجواب حق لا ريب؛ فأنت هنا قد قلتَ ما قاله الله ﷻ في كل آية من آيات أم الكتاب.. فشرَّفك الله شرفًا لا منتهى له حين نسب قوله هو -سبحانه- إليك، وجعله قولك فقال: [فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين]، وهكذا كان الشأن معك من رب العالمين -سبحانه- في كل آية قرأتها، وهذا أعظم ضمان لك بالإجابة على أعظم حمدٍ، وأعظم ثناء، كما أنه الإجابة على أعظم دعاء.. فما أعظم فضل الله ﷻ ومِنَّته علينا بأم الكتاب؛ فهو: يعلمنا ليعطينا.. كما علَّم ربنا -سبحانه- أبانا آدم عليه السلام كلمات ليغفر له، فلما قالها غفر له..، قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، أليس هذا ما نفعله نحن في كل صلاة، فما ظننا برب العالمين؟!

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٤٠٦)، وحسنه الأرنؤوط.

فيا ربنا:

لَوْلَمْ تُـرِدْ نَيْـلَ مَا نَرْجُو وَنَطْلُبُهُ مِنْ فَيضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنَا الطَّلَبَا

فيا صاحب الحظ العظيم؛ إلحاحًا بالدعاء، وتكرارًا لقراءة الآية الواحدة من آيات أمّ الكتاب، وَرِضًا بما يقسمه الله -سبحانه-، ورجاءً متوقدًا لا يخبو أبدًا عن طلب المزيد ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، زد فالله وعدك إن زدت بالمزيد، فقال -سبحانه-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣]، فإن شعرت بتوقف المزيد من القرب فادع وألحّ.. بما تشاء، وليس مثل آيات أم الكتاب آيات تسأل بها ربك.. مع هيجان القلب بالدعاء مع كل آية وبعدها.. تحرَّك بذلك اللسان أم لم يتحرَّك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وسوف يكون لنا -بإذن الله- مع هذا الحديث وقفات،فمن الصعوبة لمن أراد الخشوع في الصلاة ومعايشة آيات أمّ الكتاب أن يتخطَّى هذا الحديث القدسي الفريد ثم هو يظفر بالخشوع!

والحديث المراد هنا هو ذاك الحديث الفذّ الفرد، وهو الحديث القدسي الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»(١).

فلعلَّ الله وهو الحنَّان المنَّان أن يحنَّ علينا ويمُنَّ فينقلنا إلى مقام نستشعر فيه جواب الله لنا كما ورد في الحديث. اللهم آمين.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

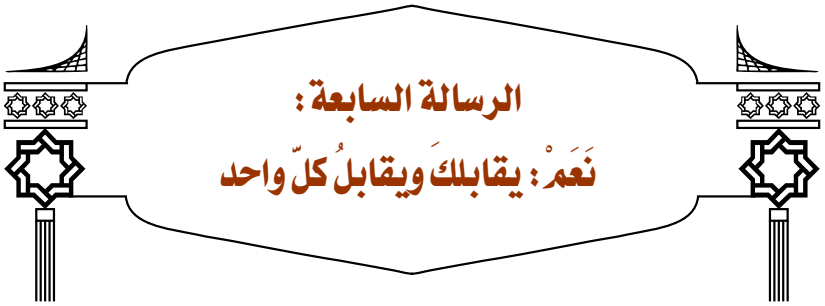

الرسالة السابعة:
نَعَمْ: يقابلكَ ويقابلُ كلّ واحد

يا أصحابَ سورةِ الفاتحة: هل تذكرون ماذا يحدث بعدما ينتهي العبد من قراءة كل آية من آيات فاتحة الكتاب؟

إن الله -سبحانه- يجيبه، أليس كذلك؟

حقًّا إننا لم ولن نواجهَ في حياتنا على هذه الأرض موقفًا مثله ولا لقاءً يقاربه ولا يُساميه، أليس كذلك!؟

لا شك أنَّنَا وكل مسلم يعتقد بهذا.

فما الذي يشاغل قلبي ويشاغل قلبك عن جواب الله -سبحانه- لنا، فلا يأخذ جوابه -سبحانه- حقه من الجلال والخشية والأثر في قلوبنا.

لا شك أن وسواسًا داخل نفوس البعض يقول لهم: كم مُصلٍّ يصلي على الأرض في اللحظة التي تصلي أنت فيها، فكيف يقابلك الله ﷻ وحدك ويقابل كل واحدٍ من هؤلاء على حدة.. كيف يجيب كل واحد منهم ويجيبك في وقتٍ واحد؟!

بهذا الوسواس الشيطاني وأمثاله أفسد الشيطان -نعوذ بالله منه- ألذَّ ما في عمر الإنسان وأطيبَه وأحلاه وأزكاه، فما عاد اللقاء بلقاء، وما عاد القُرب بقربٍ ولا اقترابٍ، وما عاد القلب يستشعر أو يحس من ربه بجواب، لأنه ما عاد يحس

من نفسه بحمدٍ مقصود، وثناء مرفوع، وتمجيد بتأكيد، ولا يخطر له أنه رفع لله دعاء. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وذلك لأن البعض استبعد أن يلاقِيَه الله ﷻ ويلاقِيَ غيرَه في نفس الوقت، فضعف حَمْل اللقاءِ على عظمته وجديته، وحجب الغمام والقتر حقيقة اللقاء العظمى في الصلاة، وأزال عن القُرب والاقتراب لُبَّه وسداه.

ولو أنَّا تذكَّرنا أول السورة المباركة هذهِ لعلمنا أن الله يعلم بذلك، ولذا جعل الله لنا الوقاية حين قال عن نفسه أولًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فكيف يجعله عبدُه ﷻ في نفسه كالعالمين وهو ربهم -سبحانه-، ثم نقيسه على العالمين حتى وإن لم نقصد ذلك؟! وتجعل قدرته كقدرتهم، ووجوده كوجودهم، وكأنه يغيب كغيابهم والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

لقاء الله ﷻ راسخ في الفطرة:

وسوف أعطيك شاهدًا على ذلك من داخلك... من فطرتك؛ هل كنت تفكر يومًا وأنت ترى كيف تصطكُّ الجموع في الطواف حول الكعبة وأنت واحدٌ من بين تلك الجموع، أكنت تفكر أن تطلب من الجموع التوقُّف عن الدعاء والطلب من الله ﷻ لحظة واحدة لئلا يشاغل أحد رب العالمين عنك؟!

كيف وجموع المصلِّين والطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود تمتد بعيدًا بعيدًا، كيف والمصلُّون في كثيرٍ من بقاع الأرض وفي نفس اللحظة يدعونه من كل مكان، ولا أحد يخطر له خاطر أن أحدًا يمكن أن يشغل الله -سبحانه- عن صلاته هو أو عن دعائه؟

فما من مسلم إلا وهو يعتقد ويقول بهذا ومُسَلِّمٌ به من غير أدنى تساؤل ولا مناقشة ولا مماراة بما ذكرنا آنفًا، ومُسَلِّم تسليمًا مطلقًا بما قال الله في ذلك في كتابه العزيز، كقوله -سبحانه-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧].

أتدري لماذا؟ لأنها الفطرة -والفطرة أصدق شيء-، ومما جعله الله في الفطرة معرفة الله، ومن تلك المعرفة المستقرة في فطرة الإنسان أن الله يسمع كل أحدٍ، ويرى كل أحد وأنه مع كل أحد، كما قال -سبحانه-: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤]، ويجيب كل الداعين في لحظةٍ واحدةٍ وأن الله على كل شيء قدير، وهذه لا تحتاج إلى دليل عند الناس فدليلها الفطرة السليمة وعامة الناس من أصحاب الفطر السليمة لا يسألون عن دليل عقلي، فهم يعلمون أنهم يلاقون الله، والله يلاقيهم بدون أدنى ريب، ولا حاجة لسؤال عن هذا، ولا حاجة لدليل علمي نظري عندهم، فإن الفطرة الصافية النقية قد عرفت الله تمام المعرفة، وهي لا تحتاج تكييفًا ولا تمثيلًا ولا تضليلًا، فقال -سبحانه-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] هناك جعل الله الفطرة وجعل فيها ما شاء، بل أشهدها على حقيقة عظيمة شهدتها وإلا لم تُسَمَّ شهادة [وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ]، والسؤال هو: على أي شيء أشهدهم؟ والجواب من الله -سبحانه-: [أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ]، والسؤال واضح والجواب واضح، فالله ﷻ لم يُعَرِّف الفطرة بنفسه تعريفًا علميًّا ولا غيابيًّا.. وإنما عرَّفهم من خلال الشهادة [أَلَسْتُ] أنا الله رب العالمين «بِرَبِّكُمْ»، فشهدوا على ما شاهدوا، هذا العلم ليس

في العقل، ولا هو في القلب، ولا هو في العين الباصرة، كما أنه ليس في الأذن الظاهرة.. إنما هو في الفطرة التي لا نعرف كنهها من باب أن تعريف المعرَّف تجهيل وتقليل.. ولذا تجد هذه الحقيقة موجودة في كل إنسان ولا أحد يملك تغييرها مهما أُلِّفَ من كتب أو دخلت عليها مؤثرات، فالفطرة لا تخالطها شوائب وكل ما يظهر للناس أن الفطرة قد تغيَّرت، فهذا الذي يظهر إنما هو أقل من غبار خارجي وبنفخة الحق يزول، فالفطرة كما قال الله ﷻ وقوله واضح ومبين وحق لا ريب فيه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

أتريد أن أعطيك صورةً أكبر بكثيرٍ مما يحدث في الصلاة؟ إذًا تدبَّرْ في هذه الصورة العظمى الواردة في هذا الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُم وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ...**»(١).

تَنَبَّه هنا للعظمة المطلقة، فليست المسألة هنا افتراضية، ولا هو سؤالٌ وجوابٌ لبعض الخلق كما في حديث الصلاة! وليست هي صورة واحدة ومطلبًا واحدًا كما هو الحال في قراءة الجموع في كل مكان لسورة الفاتحة.. لا بل يقول هنا: «فسألوني»، أي: في لحظة واحدة، ثم يقول: «فأعطيت كل واحدٍ مسألته»، أي: أن لكلٍّ مطلبًا غير مطلب الآخر، فأجبت كل واحدٍ، وأعطيت كل واحدٍ فورًا، وفي لحظةٍ واحدةٍ، فأين جواب الصلاة المحدود بالمصلين من هذه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧).

الصورة العظمى، وهل للعدد تأثير في قدرة الله تعالى وملاقاة العبد له، أو ملاقاته هو -سبحانه- كل عبد من عبيده؟!

ونعوذ بالله أن يكون فينا شيء ممن قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وهاك صورةً أخرى تُقَرِّب الأمر أكثر: كم أعداد المصلين على الأرض في الفريضة الواحدة في نفس الوقت؟!

الجواب: إنهم كثيرٌ.

وكم أعداد الأولين والآخرين الذين سيجمعهم الله في أرض المحشر؟!

الجواب: لا يحصيهم إلا الله، ولا نسبةَ بين هؤلاء وهؤلاء إطلاقًا.

ألم يقل النبي ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وينظرُ أَشْأَمَ منه فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وينظرُ بينَ يَديهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تلقاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(١).

فكيف سيحاسب الله كل الخلائق في ساعة واحدة، وكيف سيكلِّم كل واحدٍ على حدة؟! وأي الاثنين أعظم؛ صلاة بعض أهل الأرض وملاقاة الله ﷻ لكل واحدٍ منهم، أم محاسبة الله كل واحدٍ على حدة في وقتٍ واحدٍ لأهل المحشر كافة؟! ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، أَبَعْدَ هذا نحتاج إلى دليلٍ لنعرف كيف يجيب الله بنفسه أعدادًا محصورةً محدودةً على وجه الأرض في صلاةٍ واحدةٍ!؟

وأخيرًا: كيف يتجرَّأ البعض أن يظن في نفسه ما مقتضاه: أن قوله ودعاءه ربه

(١) متفق عليه: البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦) (واللفظ له.

حقيقة لا تقبل التأويل، بينما قول الله -سبحانه- ولقاؤه لا يَحْمِلُه على الحقيقة؟! وأن حضوره هو حقيقة في لقاء الله.. بينما وجود رب العالمين في اللقاء ليس بحقيقة؟! نعوذ بالله من هذا الظن بالله رب العالمين، هذا بالرغم من أن [أم الكتاب] تُبيِّن أن قول الله مقابل لقول العبد وبنفس الأحرف «إذا قال العبد.. قال الله»، فإذا كان قول العبد على الحقيقة فكيف لا يكون قول الله له على الحقيقة، وإذا كانت ملاقاة العبد ربه على الحقيقة فكيف لا تكون ملاقاة الله لعبده على الحقيقة؟!

وهذا ليس لقاءً بالجملة للمصلين مجتمعين، بل هو لكل عبدٍ على حدة.

يا أيها المصلي: كفاك ما ذهب من عمرك وأنت ذاهل عن حقيقة لقاء الله لك في كل صلاة، ومنصرف عن جوابه لك على كل آيةٍ من آيات أمّ الكتاب، فلا يَنْشَغِلَنَّ قلبُكَ بعد اليوم عن جوابه -سبحانه-، ولا تلتفتنَّ بوجهك عن وجهه الكريم -سبحانه-؛ فقد صحَّ في الحديث عن حُذيفةَ عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى أَقْبَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ يُنَاجِيهِ فَلَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ حَدَثَ سُوءٍ**»(١).

فهل أيقنت الآن بأن جواب الله -سبحانه- لك ولكل مُصَلٍّ من المصلين في وقتٍ واحدٍ، وكل على حِدَةٍ، هو أمرٌ على البشر مستحيل، لكنه على الله يسير، وهو واقعٌ كلما قرأنا أمّ الكتاب.

فكم نغفل عن عظمة الله، وكم نحتاج أن نعود سريعًا فنتذكر أولًا وقبل كل

(١) أخرجه البيهقي بإسناد حسن في الأسماء والصفات (٦٥٥)، ورواه عبد الرزاق في المصنف (١٦٨٩)، وصححه حبيب الرحمن الأعظمي.

شيء كلام الله ﷻ، ومنه قول الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله -سبحانه-: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، ونتذكر: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ونتذكر آيات الله الواردة في عظمته وسوف ينقشع عجاج الشيطان وقتره، ويزول البعد الوهمي، ويحق الاقتراب والقرب الحق من الرب -سبحانه- كما هو في الفطرة التي فطر الله الناس عليها نقيةً من كل شر، سالمة من كل جدال عقدي، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

فإنك إن عرفت الفاتحةَ عَرفتَ الله، فإن عرفت الله -سبحانه- أدخلك في حماه، ومن أدخله الله في حماه فرّ منه الشيطان ولم يكن له عليه سبيل.

لذلك لا تيأس، فانتظارك حتى يُمنح قلبُك مقامَ الإحسان عبادة، ومجاهدتك على باب الفاتحة عبادة، وتفكُّرك وتدبُّرك وادِّكارك عبادة... لا تيأس فإنك على باب فاتحة الكتاب وأم الكتاب وليس الدخول في أي موضعٍ من القرآن الكريم -وكل مواضيعهِ كريمة- مثل الدخول هنا... فهي والله في غاية السهولة ولكنها في غاية العظمة ومنتهاها، وغاية الإحكام الذي يجمع الكتاب كله.. فاصبر وانتظر، واصبر واصطبر، واقرأ وارتقِ، وأبشر بأن الفتح بالفاتحة.

الرسالة الثامنة:
هَلْ يَحتاجُ الحَمْدُ إلى بيانٍ نظريّ؟!

هل تحتاج هذه الآية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلى تفسيرٍ أو بيانٍ!؟.

لا والله لا تحتاج إلى بيانٍ لُغَوِيٍّ ولا تفسيرٍ لُغَوِيٍّ، فالحمد معروفٌ يعرفه كل أحدٍ، ويقوله كل أحد.

إنما الحاجة: حاجة القلوب أن تنطقَ بالحمد لله وتَرفَعَ الحمدَ حمدًا صادقًا، فالحمد مطلب القلوب قبل أن يكون فرضًا عليها، والحمد دواء القلوب وبغيره تموت بالتصحُّر والتصخُّر، ولذا جاء الحمد هنا إخبارًا مطلقًا عن أمرٍ هو مُسلَّمٌ لا حاجة لفرضه، ولا لبيانه ولا لبيان من يرفعه ولا حاجة للأمر به.

الحاجة: أن تفقه النفوس أن ربها -سبحانه- ما علَّمها الحمد إلا ليقبله منها.

الحاجة: أن تدرك العقول أن الله -سبحانه- ما قدَّم الحمد أولًا إلا ليؤنسها، ويفتح لها باب الأمل العظيم بالله.

ويُقدِّم لها الحمد أولًا ليقدم لها المزيد في الفاتحة وما بعد الفاتحة، كيف لا وهو القائل -سبحانه-: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقدَّم الحمد أولًا ليحطَّ عنَّا واجب شكر النعم الماضية كلها، فيكون ما بقي وما هو قادمٌ خالصًا لنا.

ليست الحاجة هنا إلى تفسيرٍ نظريٍّ أو معرفي مجرد، إنما الحاجة: أن تجد نفوسنا في الصلاة فرصةً لتقدم الحمد لله إذ هي في اللقاء والمواجهة.

الحاجة: أَنْ أُرِيَ اللهَ -في كل مرةٍ- حرارةَ ما بين جوانحي من صِدْقِ حمدي لربي، فالله -سبحانه- لا تغريه حركة اللسان ولا صورة رفع الأكف إن كان القلب غائبًا لاهيًا، وفي الحديث: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»(١)، لأنه كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٢)، **فهنا المضمار الأول والأعظم لسباق الحامدين** ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

الحاجة: ليست أن نُشَعِّبَ الحديث ونشتِّت الأذهان في معاني الحمد والمدح ونطيل في ذلك، إنما الحاجة أن يملأ (حمد الله) شعاب صدورنا، ويفيض من قلوبنا على ألسنتنا، فقلبك هو المعنيّ بذلك فإن الحقيقة هي أن من يقول لربه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنما هو القلب فكيف يراه ربه -سبحانه- إذ هو يُعلنه ويرفعه؟

الحاجة: أن نَحْمد الله في صلاتنا كأننا نراه -سبحانه-، وكأننا نستمع إليه وهو يقول لي ولك ولكل حامد مجيبًا: (حمدني عبدي).

إن هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي بذاتها نعمةٌ، وقراءتها وكل ما فيها نعمةٌ، وربما هذا ليس بجديدٍ عليك، لكن الجديد هو أن يستيقظ قلبك للحمد ويستيقظ لتقدير هذهِ النعمة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٥).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٥٦٤).

والله إني لأعتقد لو أن الحِبْر الجاف نطق من موقعِ آيةٍ على الورق لنطق بالحمد حِبرُ هذه الآية لأجل موقع هذه الآية فقال بلسانٍ صريحٍ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أتدرون لماذا؟

انظروا إلى موقعها؛ انظروا إلى ما سبقها وما لحقها من قول الله؛ لقد سبقها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأعقبها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهل مثل هذا الموقع من موقع وهل مثله من توسطٍ وجوار؟ فَحُقَّ لها أن تكون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معنىً وموقعًا ومقامًا وتقربًا.

فيا أيها الحِبْر على هذا الورق: تَكَلَّم من موقع الآية، وأَسْمِعْ العالمين أجمعين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

تَكَلَّم؛ فلعل قلوب بني آدم تتعلَّم أو تغار فتتفجَّر بالحمد لله رب العالمين.

ليس البيان هو ما يبيِّنه قلمي أو قلم غيري، إنما البيان الحق هو ما تُبَيِّنه القلوب من حمدٍ لعلّام الغيوب، وهو ما تشهد له الأعمال الصادقة من شكرٍ لله في مجالات الحياة كلها.

«**الحمد لله**» تلك التي تملأ الميزان حقًّا... إذ فاضت من قلب عَجَزَ عَجْزًا مطلقًا عن أداء شكر ربه.. فامتلأ الصدر بحمد الله.. وانتشر الحمد في شعابه، فتحرَّكت لأجله مشاعره وعواطفه الصادقة.. فانفجر به اللسان المتحرِّق صدقًا وعرفانًا فامتلأ بها الميزان.. وما أدراك ما الميزان!

حمد الصدق وصدق الحمد الذي أعجز ملائكة الله الكتبة عن كتابة ما قال وتحديد أجره من غير أن يتعلمها ذاك الحامد ﷺ من قبل، فعن رفاعة بن رافع الزُّرْقِيّ، قال: كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وراءَ النبيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قالَ:

سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ، قالَ رَجُلٌ ورَاءَهُ: رَبَّنَا ولَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قالَ: «**مَنِ الْمُتَكَلِّمُ قالَ: أَنَا، قالَ: رَأَيْتُ بِضْعَةً وثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ**»(١).

فالحمد حياة، والحمد لغة القلب الأولى التي لو تكلَّم الوليد أول ما يخرج من بطن أمه لما قال غيرها؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَطَسَ فَأَلْهَمَهُ رَبُّهُ أَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَلِذَلِكَ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ»(٢)، وهي عند كل شئون الحياة.

وكما أن الحمد لسان اللحظة، فإن الحمد هو لسان حال الحياة الذي لا يتوقف ولا ينقطع، لأن الله -سبحانه- يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ومع هذا فالله ﷻ لا يريد مكافأة النعمة بمثلها، ومَنْ يكافئ الله ﷻ! ولكنه -سبحانه- يكتفي من عبده بالحمد الصادق، الحمد ولو كان كلمة، ولو كان في دعوة، أو مقدمة دعوة، أو وسط ذكر.. فالحمد لله أن رضي منَّا ربنا بـ«الحمد لله».

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧٩٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦١٦٤)، وحسنه الأرنؤوط.

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٤) رواه ابن ماجه (٣٨٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٦٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال: سبحانَ اللهِ وبِحَمدِهِ، في يَومٍ مِئةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خطاياه، وإنْ كانتْ مِثلَ زَبَدِ البَحرِ**»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ: «**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(٢).

وعن عائشة ﵂، قالت: إني لأعلم كيف كان النبي ﷺ يُلَبِّي: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَريكَ لكَ لَبَّيْكَ، إنَّ الحَمدَ والنِّعمةَ لكَ، والمُلكَ لا شَريكَ لكَ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ؟**» قُلْتُ: **يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»(٤).

ولا يأنس قلب العبد إلى شيء إيناسه ورضاه بالحمد، وصيغه المتنوعة العظيمة «**الحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَالحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَالحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا**

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٩١) مُطَوَّلًا.
(٢) رواه البخاري (٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).
(٣) رواه البخاري (١٥٥٠)، ومسلم (١١٨٤).
(٤) رواه مسلم (٢٧٣١).

فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَالحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَالحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالحَمْدُ للهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالحَمْدُ للهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ»[(١)].

وَعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ**» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «**جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**»[(٢)].

ونحن إذ نقول هذا فإنَّا لم نبلغ قطرة من أم الكتاب، وإنما نغترف للآية الثانية من آياتها المباركة، ولو أنَّا جمعنا كل تفاسير الدنيا المكتوبة ولم توصِلنا إلى أن نحمد الله كما يرضي ربنا عنَّا فما بيَّنَّا معنى الحمد، بينما لو أن عبدًا لم يقرأ معنى الحمد في اللغة وفي الاصطلاح وعند المفسرين لكنه كان يحمد الله من خالص قلبه لبلغ هو الغاية والمطلوب ذلك أن كل التفاسير وسائل لبيان الحق، بينما بلوغ العباد روح البيان ومراده هو الغاية، وبلوغهم حقيقة الحمد هو الغاية.

سنكتشف عند نهاية المطاف أن تفسير [أمّ الكتاب] على الحقيقة أي: تفسيرًا يبين كل ما فيها، وليس تفسيرُها بالمعنى اللغوي المعروف أمرًا مستحيلًا كيف وأنها [أمّ الكتاب]، فكل ما في الكتاب اختُزن فيها بل كل ما في الكتب السابقة، بل فيها ما ليس في ذلك كله.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٤٥) رقم (١٥٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٥).

إن البيان المطلوب والمرغوب إنما هو بيان القلوب، الذي يفتِّح القلوب وينيرها ويحركها فتبعث كل طاقة صاحبها، مثقلة بفضل الله ﷻ، عاجزة عن شكرِهِ، متعزية كل العزاء بفرح الله لحمد عبده له.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالحمد هتاف القلوب الدائم، الذي يقابل نِعَمًا لا تُحصَى ومُنعِمًا لا يغفل ولا ينسى.

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سلوك وممارسة في الحياة لا يتعثَّر عند الصدمة الأولى ولا الأخيرة... فمن تعوَّد الحمد على المصائب بلغ الصبر وزاد.

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ**»(١).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لقد صنعتْ كلماتُ اللهِ هذهِ حياةَ حمدٍ كاملةٍ تمثَّلت في عبادٍ من عباد الله.. استحقوا أن يسبقوا كل السابقين عند الترتيب في دخول الجنة، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ خَيْرَ عِبَادِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَمَّادُونَ**»(٢).

(١) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٨٩٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٥): رَوَاهُ أَحْمَدُ مَوْقُوفًا، وَهُوَ شِبْهُ الْمَرْفُوعِ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

الرسالة التاسعة:
التجاوبُ الأعظمُ في أُمِّ الكتابِ

استعن بالله ﷻ حتى يتحقَّق التواصلُ بين قلبك وبين كل آيةٍ من آيات [أمّ الكتاب]، وتعيشه فإن ذلك ضروري لأجل أن تدخل اللقاء مع الله وتتذوَّق بعض ما في ذاك اللقاء، وبغير هذا التواصل يصعب تجاوب القلب مع السبع المثاني خاصةً، إن التواصل العجيب بين قلب الإنسان وهو سر حياته، وبين كلام الله وهو مصدر حياته، لهو سرٌّ لا يوجد إلّا في كلام الله -سبحانه-، أليس هو -سبحانه- مصدرَ الاثنين، الإنسان والقرآن؟ فالإنسان خَلْقُه والقرآن كلامُه، فلا غرابة في هذا أبدًا، والله -سبحانه- جمعهما معًا فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن:١-٣]، فإن أساس علاقة القرآن بالإنسان إنما هي مع القلب، هكذا هو في أول نزوله، فقد قال -سبحانه-: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، وقال -سبحانه- كذلك: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

نعم نزل القرآن على أكرم قلبٍ مباشرة، قلب رسول الله ﷺ كما هو في صريح الآيات، وهكذا ينبغي أن ينزل في قلوب المؤمنين إذا قُرئ عليهم أو قرؤوه، قال -سبحانه-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ

جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

فإذا استقرت هذهِ الحقيقة في القلب فلنرتقِ إلى حقيقةٍ إيمانيةٍ أعلى؛ تلك هي أنَّ تجاوب المؤمن إذا استمع للقرآن سوف يظهر من قلبه على مظهره لزومًا، وعلى الأخص أثناء قراءته القرآن واستماعه له، وربما زاد أثر كلام الله وتعدَّى المظهر إلى التجاوب مع كلام الله بجواب مسموعٍ من القارئ والمستمع، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ؛ فَعَنْ عَوْفِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**قُمْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَبَدَأَ فَاسْتَاكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ مِنَ الْبَقَرَةِ، لَا يُمِرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يُمِرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ يَتَعَوَّذُ**»(١).

ومَعاذ الله أن يكون ترديد النبي ﷺ وتجاوبه وقوله هذا من قبيل قول الغافلين من المتجاوبين، بل هو تجاوب من نزل القرآن على قلبه فوعاه كما لا يمكن لأحدٍ أن يبلغ مبلغه، أو يتصوَّر منتهاه!

فإذا أدركنا هذا جيدًا فإننا الآن نستطيع أن نرتقي إلى مقامٍ أعلى من الأول وأعلى، إنه مقام [أمّ الكتاب]، إنه المقام الذي ليس فوقه مقام إلا رؤية الله ﷻ وهذا هو المحال في هذه الدار أو مقام مشافهة الله بالخطاب، وهذا محال إلا على كليم الله موسى عليه السلام، وبهذا يبقى مقام أمّ الكتاب فذًّا واحدًا لا نظير له أبدًا، لم يُنَزِّل الله مثله في كل الكتب السابقة بل ولا في القرآن كله.

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، وأحمد (٢٣٩٨٠)، وصححه الأرناؤوط.

هل ترى مقامًا يقومه العبد؛ يقول العبد فيه قولًا ويجيبه الله فورًا على قوله غير مقام أمّ الكتاب حين يقرؤها في صلاته؟!

اذهب وابحث، ثم ابحث وابحث، وستعود في النهاية إلى [أمّ الكتاب] لأنها هي «الأم»، ولكنك إذا رجعت لها هذه المرة فلتكن في مقامها الذي تستحقه، مقامها الذي رَفَعَتْكَ إليه، مقام رفع القول لله رب العالمين، واستماع الجواب من ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

ألست معي الآن: بأن أمّ الكتاب [هي الأم] في مقامات الإيمان، ومنازل الإحسان، ومعارج القرب من الله ﷻ، ومقام التجاوب الفعلي لكلام الله وانتظار جواب الله؟

وهذا التجاوب المنصوص هو منفرد عن جميع سور القرآن العظيم، وعن جميع الحالات، ولكنه غير مقتصر ولا محجور ولا محبوس، بل هو المُعلِّم الذي يُعلِّم العبد ذلك، بل يُعلِّم قلبه، وهذا ما مَرَّ معنا مثله في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وفي اسم [الله] في أم الكتاب وفي غيرها، وسيأتي معنا – بإذن الله – منه ما يتيسر.

الرسالة العاشرة:
نظرةٌ لأُمِّ الكتابِ مِن غيرِ مسلمٍ(١)

أيها المسلم تصور: لو أن رجلاً مهمومًا مغمومًا باحثًا وقع في يده القرآن الكريم ولم يكن مسلمًا، فأخذ القرآن وانزوى جانبًا لعله يجد ما يشفي غليله، ويُريح ضميره، ويُجيب على أسئلته.

لقد فتح الصفحة الأولى في القرآن فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، تُرى أي انطباع سيقع في قلبه وقد كان في استقباله من هذا الكتاب قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟

هنا توقَّف هذا الباحث المهموم وأخذ يتساءل: لِمَ اختار ربُّ هذا الكتاب المَطْلَع لكتابه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ألا يدل هذا المطْلع على ما في هذا القرآن ومحتواه، ألا يدل هذا المطلع على المقصود الأساس من إنزال هذا الكتاب، ألا يدل على أن هذا الرب يحب الرحمة، ويحب أن يرحم عباده،

(١) هذا مثال عملي للدعوة إلى الإسلام بكلام الله وبفاتحة الكتاب خاصة، فكلام الله أعظم من كلام كلِّ داعية، وقد قال الله -سبحانه- لمن آتاه جوامع الكلم ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، أليس هو الهدى والنور والحياة، فَلَكَمْ ستفتح القلوب لو بيَّنَّا الفاتحة لغير المسلمين بيانًا خاصًّا بهم ولهم، ثم إن بمثل هذهِ الطريقة يتحقق النفع العظيم للمسلم لما فيها من جديد، ومن تحفيز على إدراك ما لم يدركه من قبل، وما فيها من قَطْعٍ للمألوف في تلقي (أم الكتاب)، وتجديدٍ للصلاة نفسها.

ويحب أن ينشر رحمته، وأن رحمته سبقت غضبه، لأنه قد وضع الرحمة في أول كتابه قبل كل شيء، كما يدل على أن رحمتَه عظيمةٌ لدرجةٍ لا يمكن لأحد تصورها، لأنه لم يذكر نوعًا من الرحمة هنا، بل وضع اسميه الكريمين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

أيها المسلم: أتدري لِمَ افترضتُ لكَ شخصيةَ هذا الباحث؟ ولَمْ أفترضْ شخصًا مسلمًا أو عالمًا؟!

إن هذا الرجل الجديد يحمل نظرة جديدة لا نعرفها نحن المسلمين، يحمل نظرة من زوايا نحن لا ننظر منها، فإن العادة والألفة تقتل الإحساس بالعظمة لهذا الكتاب العظيم للأسف، بينما هذا الباحث يدرك ما لا ندرك.

كم من رجل دخل الإسلام بمثل هذا السبب وهذه الطريقة في التفكير والذي يفرضه كلام الله جلالًا وجمالًا وهو الحق؟!.

بل بأقل من هذا كذاك العالم الذي دخل الإسلام لما قرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢] فقط، وقال: هذه أول مرةٍ أرى فيها مُؤَلِّفًا لكتاب يتحدَّى كل أحدٍ في أول كتابه أن يجد في كتابه خطأً واحدًا، بينما نحن المؤلفين قد اعتدنا على أن نطلب من كل من عنده ملاحظة أو يرى خطأً فليبلغنا به على الرقم أو الموقع الموجود على غلاف الكتاب وله الشكر، لذا فإن صاحب كتابكم هذا من المستحيل أن يكون مخلوقًا بل هو الخالق نفسه، فالذي لا يُخْطِئ أبدًا حتى في كلامه هو واحد فقط وهو الخالق، فلقد أذهلني هذا اليقين القاطع عند صاحب كتابكم، ولذا دخل هذا العالم الإسلام!

إن هؤلاء الأجانب الباحثين عن الحق يقفون طويلًا عند كلمةٍ واحدةٍ

ولا يملُّون، ويطيلون النظر ولا يستعجلون، فلا تستغرب هذه الاستنتاجات، وإذا أراد الله -سبحانه- لهم الهداية فتح لهم أبوابًا من معرفة الحق لم يحسبوا لها حسابًا.

ألا ما أسهلَ إدخالَ الناسِ إلى الإسلام لو أنّا قدّمنا القرآن قبل كل شيء لهم، ألا ما أوسعَ أبوابَ الفاتحةِ وما أسهلَ حمْلَ الهدى من كل مسلم لغير المسلمين لو فقهوا... فهل من مسلم لا يعرف فاتحة الكتاب؟!

والآن: هل رأينا مفتاحًا للقلوب مثل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟!

وأخيرًا من حقك أن تتساءل: وماذا سيجد هذا الناظر الجديد في الفاتحة؟!

والخلاصة التي سوف نخرج منها من نظر هذا البحّاثة للقرآن هي أننا لم نعطِ القرآن حقه بعد، ولم نجاهد بالقرآن جهادًا كبيرًا في الدعوة بعد، ولم نوصل لغير المسلمين نصيبهم من القرآن بعد، بينما نحن مؤتَمنون على ذلك.

أقول: سوف أتركك إلى الرسالة القادمة خشية الإملال، ولكي تتأمَّل أكثر في هذه الرسالة فإنها سهلة وعميقة.

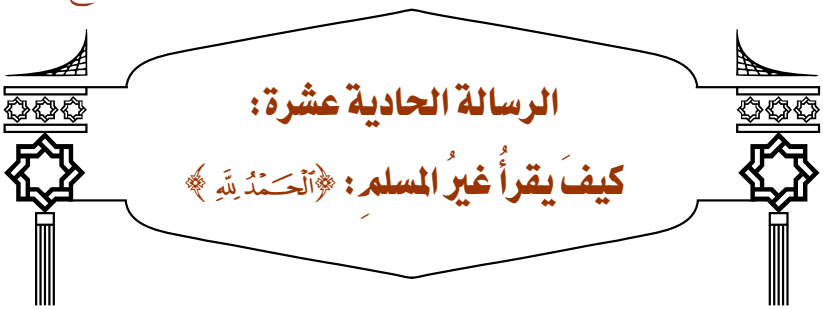

الرسالة الحادية عشرة:
كيفَ يقرأُ غيرُ المسلمِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

قال الباحث: لقد تصورتُ نفسي وكأني وُجِدْتُ في العالم فجأة ولكن بعقل كامل، **فتساءلت عن أول فكرة سوف تتبادر إلى عقلي عند أول وجودي؟**.

فكان الجواب: إن أول فكرة سوف تسبق كل الأفكار هي أن أنظر في نفسي فأقول: الحمد والشكر لمن أتى بي من العدم إلى هنا.

أليس كذلك؟.

ثم أبدأ أتحسَّس جسمي، وكلما اكتشفت في نفسي خاصية ونعمة **قلت**: الحمد لمن وهبني هذه النعمة، وهذه، وهذه، وهكذا أخذتُ أُعدِّد النعم وإذا بها إلى ما لا نهاية.

ثم بدأت أنظر في العالم من حولي وكلما نظرت حولي قلت: الحمد والشكر لمن أعطاني كل ما حولي من النعم؛ من أرض، وماء، وهواء، ونور، وما إلى ذلك.

ثم رفعت رأسي فنظرت في الأعلى، في الأسفل، في السماء، في البحار، في الشجر، في الثمر، في الطعام، وكلما نظرت في نعمةٍ وجدت أنها مُسَخَّرَةٌ لي، قلت: الحمد لمن أعطانا وسخَّر لنا ما حولنا.

ثُمَّ نظرت فيمن حولي فرأيت الجميع يتمتَّع بنفس النعم، فقلت: الحمد

لمن وهب العالمين كل هذه النعم، ولكن العجب أني حين نظرت في دور العبادة لم أجد أن كل العالمين يعبدون من وهبهم كل تلك النعم، بل وجدت الكثير من العالمين لا يعبدونه!.

أما العجب الأكبر فإني وجدتُ أن ربهم لم يُفرِّق بينهم في النعم على أساس عبادته وحمده، فعرفت حقًّا أنه ﴿ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨]، فهو ربُّ مَن عَبَدَه ومَن لَمْ يَعْبُدْه.

عند هذا الحد عرفت حقًّا أن هذه الآيةَ كافيةٌ للإيمان برب العالمين وحده وعبادته وحده.

أرأيت كيف حَوَتْ هذه الآيةُ كلَّ هذه المعاني الهادية للإيمان؟!

أرأيت كيف تبعث كلمات الله أنوارها إلى الأفهام المظلمة، وكيف تحرِّك أَزِرَّة الهدى التي لمْ تستطعْ تحريكها بمجلدات من الكتب؟!

إنَّ كل ما ذكرته لم يخرج عن إطار «الحمد لله رب العالمين» وهذا البحر لم ينفد بعد.

ثم أضاف الباحث قائلًا: إنني ألمح إشارة إلى أهمية حمد الله وشكره، كيف وأنا أرى أن الله قدَّم الحمد في هذه السورة قبل كل عمل يعمله الإنسان.

وأضاف أيضًا: عندنا هنا كلمتان تُبَيِّنان مَعَانِيَ عظيمةً، وتضعان حدودًا عظيمةً ﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فنحن وكل ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نجتمع على الحمد، والله وحده ينفرد باسم «الرب»، فهو: ﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فهذه الكلمة حفظت لكل الخلق مبدأ المساواة مع بعضهم البعض، فلا أَحَدَ منهم يستحق الحمد المطلق لأن الله هو المتفضل عليهم جميعًا وهو مُرَبِّيهم بالنعم.

هكذا فإني كباحثٍ: أَستنشق الحرية الحقَّة وذلك بخروجي من طوق مِنَّة الخلق جميعًا، وزوال كل ربوبية باطلة من أمامي وبقاء «رب العالمين» وحده، فكل الأرباب تريد عُبَّادها أن ينفقوا عليها إلا رب العالمين، فإنه هو وحده من يعطيهم ولا يريد منهم رزقًا ولا طعامًا ولا حماية.

بل إن كل من لم يحمد الله على هذه النعم فلا يصح أن نسميه إلا ناكرًا، أو جاحدًا، وعديم الوفاء، وعديم الإحساس.

ثم قال: ألا ترى معي أيها القارىء للقرآن إلى السُّمُوِّ والرُّقِيِّ في عرض الحمد؛ فالحمد لله تعرض الحمد كحقيقةٍ واقعةٍ، فإن كلمة «الحمد» مصدر؛ أي: الحمد لله، حمدناه أم لم نحمده، فمن حمده فلنفسه ومن لم يحمده فعلى نفسه، وفي هذا تحفيز للخلق بأن يكونوا مع الحمد والحامدين، فمن لم يكن حامدًا كان نشازًا في الوجود.

ولاحَظَ الباحثُ أن الآية لم تأمر أحدًا بالحمد أمرًا صريحًا، إنما أثارت الحياء في نفس الإنسان وذلك من خلال كلمتَي (رب العالمين) فكأنها تقول لنا: إذا لم تشكروا من أعطاكم حياتكم وربَّاكم بكل النعم فمن تحمدون وتشكرون؟!

وأخيرًا قال الباحث: أيها المسلمون اعلموا أن لنا حقًّا في هذا الكتاب الكريم وهذا القرآن العظيم، ولقد حرمتمونا نحن من هذا الكتاب، فَلَمْ تخاطبونا به كما نفهم، ولم تتركونا نتذوقه بأنفسنا.

لعلك -أخي القارئ- تقول: إنني أُمثِّل شخصية الباحث عن الحق، وأنا أقول: بل أنا أحاول أن أمثِّل الحقيقة التي تعتلج في صدور غير المسلمين

المنصفين الباحثين عن الحق عند أول نظرةٍ لهم للقرآن، أحاول أن أكتشف أول شعاعٍ للهدى حين يقتحم ظلمة صدورهم، أحاول أن أكتشف الطريق الأمثل لهدايتهم بإذن الله، أحاول أن أتحسَّس حركة مفتاح الهداية في ظلام دامس، فأصفه لنستخدمه فعليًّا بإذن الله.

أحسب أن الفارق بيننا وبين هؤلاء في النظر لآيات القرآن هو أننا طال علينا الأمد فأصبحنا نحاول أن نستخرج منه الإمتاع الفكري والومضات العلمية واللغوية واللمسات البيانية والإشراقات الذوقية، أما هؤلاء فإنهم يرون فيها أشعة الهداية تتفجَّر من آيات الله من قلوبهم، وأن أنوارها تغمرهم، وتُغيِّر حياتهم وتزكِّيهم وتعلِّمهم، كما كان فعل القرآن بقلوب الذين اهتدوا طوال التاريخ ابتداءً من الصحابة ﷺ، حتى آخر مهتدٍ، فلقد كان القرآن حقيقةً كما قال -سبحانه-: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]، وليس هذا الاختصاص للقرآن الكريم فحسب إنما هو للتوراة كذلك، قال تعالى في سورة الأنعام حكايةً عن اليهود: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

أليست من غايات القرآن العظمى هدايةُ الخلق كما قال -سبحانه- عن كفار الجن الذين آمنوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢]، فهل تجد تفسيرًا واحدًا يعرض الهداية لغير المسلمين، وقد كُتِبَ بطريقتهم، ونطق من داخل حياتهم، كيف وإن التفاسير المترجمة لا يَفهَمُ بعضَها مَن نشأ في الإسلام وترعرع فيه؟

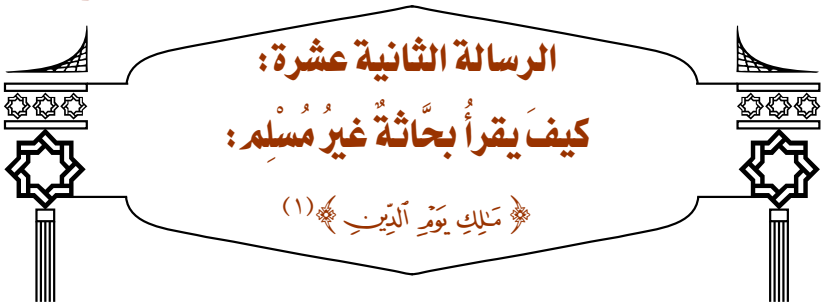

قال لي صاحبي البَحَّاثَةُ الأجنبيُّ حين قرأ قول الله -سبحانه-: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: صدقني يا أخي أني لا أجاملك إذا ما قلت لك إن كتابكم هذا عجب، لقد حاولت الغوص في أعماق هذه الآية، فشعرت أن مداها أبعدُ بكثير من قدرتي وقدرة كل البشر.

أنا: لا أستطيع أن أتصور كيف يتمالك نفسَه رجلٌ مؤمنٌ بالله حين يقف بين يدَي مَن يقول له: إنك الآن واقف بين يدي ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أنا ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

نحن مثلكم نؤمن بيوم الدين، لكنكم أنتم تقفون خمس مرات بين يديه وهو يُذَكِّرَكم بيوم الدين.

عجبًا، كيف لا يكون يوم الدين حاضرًا بين أَعْيُنِكم في الصلاة؟!

عجبًا، كيف لا تُصلح الصلاةُ حياتَكم كلَّها من خلال هذه الآية وحدها؟!

---

(١) بمثل هذا السؤال: «كيف يقرأ بحَّاثة طالب للحق...» على كل آية من آيات أم الكتاب.. ثم تجيب، ولابدَّ لمن يجيب أن يخلص لله بحق، ويستغيث به – سبحانه – بحق، ويُحسن تصوُّر المَدْعُوّ إلى الله وكأنه أمامه، وأنه لا يبتغي إحراجه بل إخراجه.. من الظلمات إلى النور... وأن يستغيث صادقًا متضرِّعًا، وسوف يهديه الله بعونه وإكرامه لما يهدي خلقه.

ليس لأن يوم القيامة مخيفٌ فحسب، لا، بل لأن الوصف الذي حملته الآية ليس هو «يوم القيامة» أو «الدار الآخرة» أو نحو ذلك بل لأنه ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بمعنى يوم القضاء، يوم الحساب، فإذا سَأَلتَ: الحساب على أي شيء؟ كان الجواب: الحساب على هذه الحياة الدنيا التي نعيشها نحن الآن، وإلا فعلى أي شيء يكون الحساب؟!

يقول البحاثة: أنا أعرف أنكم دائمًا تنتبَّهون لأمرٍ وتنسون الأمر الأعظم منه في هذه الآية، فإن تفكيركم دائمًا مُركَّز على «يوم الدين» وهو بغير شكٍ يومٌ عظيمٌ ولا يوجد أعظم منه عند كل البشر وفي كل الأديان، بينما الذي هو أعظم من يوم الدين هو مَنْ خلق يوم الدين، هو من يجمع كل الخلق ليوم الدين، هو من يحيي الخلائق ثانيةً ليوم الدين؟ هو من يحاسب كل الخلق يوم الدين، فكيف تنسون هذا في غمرة الخوف من يوم الدين وهو يجعل الكلمة الأولى في الآية بقوله: «مالك»؟

أما أنا يا أخي: فإني أشعر كما يشعر البشر بخوفٍ رهيب من يوم الدين، ولكني أشعر بأمان لا يُوصف في دينكم -إذا قرأت هذه الآية المخيفة- فإنَّ الأمان قد جعله الله لكم في نفس الآية، إنه في قوله: «مالك»، وهذا هو الملاذ والأمان الذي لا أمان ولا ملاذ سواه في ذلك اليوم الرهيب، لذلك فأنا أشعر أن هذه الآيات تقتلعني من جذوري وجذور معتقداتي لأومن بدينكم، فلا عجبَ من هذا، إذ ماذا يملك الإنسان وهو يرى نفسه أمام الخطر، بل أعظم خطر إلا أن يلجأ للحمى الوحيد؟ وبصراحةٍ فإني لو رأيت حِمَى غير الحمى لربما فكَّرت، لكن لا خيار إلا هذا، فماذا أصنع؟.

يقول البحاثة: أرجوكم فكروا جيدًا في هذ القرآن، حقًّا إنه كلام الله، أليس الله هو من يملك الدنيا كلها، بكل ما فيها من عوالم نشاهدها وعوالم لا نشاهدها، وهو القيوم عليها كلها وفي كل لحظةٍ من لحظاتها؟ هكذا نعتقد نحن النصارى.

وسؤالي: أليس الله يملك كل يومٍ من أيام الدنيا؟!

والجواب: بلى، فكم عدد أيام الدنيا؟ لا يمكن إحصاؤها.

هنا عليك أن تعرف عظمة هذا المالك الذي جمع الخلق الذين عمَّروا الدنيا في كل يومٍ من الأيام وليس في يومٍ واحدٍ منذ أبيهم آدم عليه السلام حتى آخر ابن من أبنائه.

فهو جامع الأيام وعامرها في يومٍ واحدٍ، أتدري ماذا يعني هذا، يعني أنه ذو قوة وقدرة وعلم وقُلْ ما تشاء فلابد أن يكون له الكمال كله.

يا صديقي: لا شك أنكم تُقِرُّون مثلنا -نحن النصارى- أنَّ في هذه الحياة مُلَّاكًا كُثُرًا، بل الْمُلْكُ في هذه الأرض مُوَزَّعٌ كما نراه على الناس، إلا أنه موزع بتفاوتٍ، أليس كذلك؟

إذن فبأي شيء يوحي لك قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إلا المهابة والرهبة والجلال الذي لا يشعر به الإنسان مثل شعوره وهو أمام هذه الآية، إذًا فكيف إذا أصبح هو جزءًا من هذا الموقف؟ هذه هي الحقيقة الغائبة والتي هي أحق باستحضارها في مشاعرنا ومشاعركم كلما قرأنا الآية.

يا صديقي: ثَمَّ سؤالٌ واحدٌ لمحتُ فيه بعضَ أشعة نور أحببت أن أجعلَه بين يديك.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فأين المُلَّاك الآخرون؟

والجواب: لقد استووا جميعًا في الافتقار والحاجة والمعدومية.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾: فهو مالك «اليوم» نفسه، ومن ملك الزمان ملك كل شيءٍ، ألا ترى كيف أن الإنسان عاش في الدنيا ثُمَّ ذهب عنها لأنه ملك الأرض وما ملك الزمان، ولا مَلَك عمره، ولا لَحظةً من عمره، ولهذا تَرَكَها رغمًا عنه إلى من يملك الزمان والمكان.

ملاحظة:

إلى هنا أكتفي بنظرة البحَّاثة غير المسلم عند أول نظرة ينظر فيها لأم الكتاب.. تاركًا السورةُ كلَّها لك أيها القارئ المبارك لتحملها أنت كيفما شئت نورًا لغير المسلمين.. سواءٌ كان ذلك من خلال كتاب، أو منشور، أو فِلْم، أو لقطات، أو محاضرة، أو خاطرة.. أو ما يفتحه الله لنا ولك.. فأم الكتاب هي عوالم.. هي بحور لا تنتهي، بل لا تنقص.. هي [أم الكتاب] بحق وكفاها ذلك.

كلمةٌ واحدةٌ جمعتْ كلَّ هذا الترهيب بكل هذه الصور التي لا نهاية لها - كما رأيتم في تأمُّلات هذا البحَّاثة - وكل هذا الترهيب المتنوِّع يمرُّ على قلب الخاشعين بشكلٍ متفاوتٍ، فهو النهر الجاري وكلٌ يغترف منه على حسب سعة آنيته، وربما يغترف منه خاشع يومًا ما لم يغترفه منه في الغد، وهكذا يتفاوت الناس ويتفاوت الإنسان الواحد، وهذا هو سر من أسرار عدم الملل في قراءة القرآن المتكررة، بل هو سر من أسرار تجدده الدائم وتبشيره المستمر، وحلاوته المتزايدة كلما زاد التكرار.

فهل أدركنا الآن كيف أن الله ﷻ جعل الفاتحة هي «الأم» حتى في الترهيب، فكل ترهيب في الآخرة إنما هو جزء من أجزاء قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

---

(١) قرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب الحضرمي، وخلف العاشر: (مَالِكِ) بإثبات الألف بين الميم واللام على أنه اسم فاعل من مَلِكَ مِلْكًا، أي: مالك مجيء يوم الدين، والمالك هو المتصرِّف في الأعيان المملوكة كيف شاء، وقرأ الباقون من القراء العشرة وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو البصري، وابن عامر الدمشقي، وحمزة، وأبو جعفر: (مَلِكِ) بحذف الألف بين الميم واللام، أي: قاضي يوم الدين، والمتصرِّف بالأمر والنهي في الخَلْق أجمعين. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ط. مجمع الملك فهد (٣/ ٢٤٠)، طلائع البشر في توجيه القراءات العشر، محمد الصادق قمحاوي، ط. دار العقيدة ص (١٦) بتصرف.

و[مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ]، بل ماذا تقولون إذا ما قلت لكم: إن «يوم الدين» نفسه هو جزءٌ من أجزاء الترهيب في هذه الآية؟

أتدرون لماذا؟

لأن يوم الدين هو يومٌ من أيام الله، مع أنه أخطر أيام الله على الإطلاق، إلا أن أحداثه تبقى أحداثًا وأهواله كذلك أهوالًا، وأنها وإن زادت أهوالها على الأهوال أضعافًا مضاعفة إلا أن فيه تميُّزًا آخر عن كل الأهوال والأحداث الأخرى، ذلك هو أنه يوم لقاء ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ﷻ.

فهل عرفنَا كيف أن الفاتحة هي «الأم» في الترهيب؟

وبعد هذا هل تجدون ترغيبًا مثل ترغيب الفاتحة، وتحديدًا في هذه الآية التي هي الأم في الترهيب، فالله -سبحانه- في أول ذكر هذا اليوم الرهيب جعل ذكره بقوله: ﴿مَٰلِكِ﴾ ذلك اليوم، وأرشد إلى الأمان قبل أن يذكر المخاطر، وما ذكر نفسه إلا ليلوذ العباد ويفروا إليه -سبحانه-.

فإذا ما استحضر قارئ الفاتحة أن ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إنما هو اسم من أسماء الله -سبحانه- علم أي أمان ورحمة في هذ اليوم لمن يؤمِّنه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ و[مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ]، وإذا ما ربط هذا بما سبق من أسماء الله -سبحانه- عَلِمَ أن فاتحة الكتاب هي «أمّ الكتاب» في الرحمة والتبشير والترغيب.

ثم ألا ترون ماذا سبق هذا الاسم العظيم ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، لقد سبقه أولًا: ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم ﴿ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨] ثم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم جاء ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

وربما قال القائل هنا: لماذا بعد كل أسماء الله الحسنى في الرحمة هنا يأتي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ألم يكن ذاك رحمةً خالصةً؟

أقول: نعم سوف تبقى رحمةً خاصةً ولكنها رحمة حقيقية لا تخديرية، فماذا إذا بُعث الإنسان وجاءت مواجهة ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو قادمٌ حقًّا، وقريبٌ، ألا تكون الكارثة والمهلكة حتى للمؤمنين الذي ركنوا إلى الرحمة ولم يعلموا لأنهم لم يخافوا ذلك اليوم ولا مالكه؛ لهذا فإن مجيء ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كان ضرورةً، فقد أيقظ العباد إلى الاستعداد، وأعطاهم كيفية تحصيل ما مرَّ بهم من الرحمة، إنه بخوفِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، كما قال النبي ﷺ: قال الله -سبحانه-: «وعِزَّتِي لا أجمعُ على عَبدي خَوفيْنِ وأَمنيْنِ، إذا خافَني في الدُّنيا أَمَّنْتُه يومَ القيامةِ، وإذا أمِنَني في الدُّنيا أَخَفْتُه في الآخِرةِ»[1].

ألا ترون أن البشر يُسيئون فَهْمَ التعامل مع الرحمة منفردةً، وأنهم يسيئون العمل كذلك حيث تترهَّل مشاعرهم ويسود تواكلهم ويُفسدون في الأرض، ويمشون مُغترِّين مُتكبِّرين، فكانت هذه الآية ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هي الحافظ للبشر ليصلوا إلى رحمة الله حقًّا، وهي الضابط لفهم البشر، مع أسماء الله الحسنى، وهي الضامن لاستقامتهم على الصراط المستقيم، فما أعظمَ رحمةَ اللهِ في هذه الآية ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

ألا ما أحسنَ وأكرمَ مُصَلِّيًا يعيش هذه الدنيا وبين جوانحه هذه الآيات كلما وقف بين يدي ربه حين تمرُّ عليه فتتجلَّى على قلبه آثار تجلياتها، فإن هذه الحياة التي بين جوانحه توشك أن تنتقل إلى الحياة الخارجية التي بين الخافقين.

ألا ترون أيها القراء الكرام أن من فضل الله أن جعل للكتاب العزيز سورةً

(١) صحيح ابن حبان رقم (٦٤٠)، وحسنه الأرنؤوط.

وجعلها «أُمًّا»، ألا ترون كيف جعلها الله -سبحانه- مرجعًا لكل ما ورد تفصيله في الكتاب الكريم؟

ألا ترون كيف أظهر الله -سبحانه- بشكلٍ لا نظير له أبدًا ما قاله الله -سبحانه- في: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

إذًا فَلْننقلْ ما خطَّه القلم إلى القلب مستعينين بالله وحده، فالقلب بيد الله -سبحانه- والأمر إليه، وإنه على كل شيء قدير، وإنه أرحم الراحمين.

ولسوف يكون لنا -بإذن الله- فصلٌ كاملٌ في كتاب مستقل كيف أنَّ أُمَّ الكتابِ هي رحلة كاملة إلى الدار الآخرة، فاللهم يَسِّر وأعن يا أرحم الراحمين.

الرسالة الرابعة عشرة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

مناشدة مباشرة فورية...

إذا تفكَّر القلب وتدبَّر ما سبق من الآيات وفتح الله على قلبي وقلبِك فإن القلب سوف يعرف الربط المحكم بين هذه الآية و بين ما سبقها، وربط القلب ليس كربط الفكر النظري، إن ربط القلب يفوح إيمانًا ويتضوَّع صدقًا، وينتج عملًا صالحًا عاجلًا غير آجلٍ.

إذا فتح الله على قلبك عند هذه الآية سوف يناشد رَبَّهُ مناشَدةً إِثْرَ مناشدةٍ، ويهتف به هتافًا إِثْرَ هتافٍ، وسوف أتركك مع ما سوف يقوله قلبك، وعندها سوف تقول: إي واللهِ هذا الذي قلتَه هو الذي يقوله قلبي وإن لمْ يفصحْ عنه لساني عند بحر هذه الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يا رب: قد رغَّبتني ترغيبًا ما بعده ترغيبٌ حين قلت: «الرحمن الرحيم»، ثم أَخَفْتَنِي خوفًا ما بعده خوفٌ حين قلتَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ، وبهذا ألجأتني يا رب إلى البحث عن سبل الأمان، وما أخرتني مقدار نَفَسٍ واحدٍ حتى أعطيتني ما أَسْكَنَ نفسي، وعجَّل مطلبي، وأشبع نهمي، بالآيات التي بعدها مباشرة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يا رب: لقد علَّمتنا في هذه الآيات أن الرحمة لابد من الفرار إليها، والعذاب يوم الدين لابد من الفرار منه فجاء الفرار إلى هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴾، ولقد جاء النبي ﷺ بمناشدةٍ لربه وكأنه يترجم هذه الآيات الثلاث تحديدًا وتفصيلًا فهتف بربه -سبحانه- فقال: «**اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، وَنَرْجُو رَحْمَتَكَ رَبَّنَا، وَنَخَافُ عَذَابَكَ الْجِدَّ، إِنَّ عَذَابَكَ لِمَنْ عَادَيْتَ مُلْحِقٌ**»(١).

فما أعجبَ شأنَ من قرأ هاتين الآيتين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ثم هو لم يفر إلى الآية الثالثةِ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، نعم إنه العجب لمن قرأ هذه الآيات ولم يفر هذا الفرار وقد قال النبي ﷺ: «**مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا**»(٢).

يا رب: يارب خلِّصني، يارب سلِّمني، يارب نجِّني، يارب أعتقني، وهكذا يصيح القلب خوفًا.

يقول القلب هاتفًا بربه -سبحانه-: «إياك نعبد وإياك نستعين» لما كان الخطر محدقًا.

يا رب: لما كان الخوف الذي أصاب العبد من ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ خوفًا عظيمًا ومفاجئًا لأنه جاء مباشرةً بعد آية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقد جاء الالتجاء سريعًا ومباشرًا إلى الله -سبحانه- بقولنا: ﴿إِيَّاكَ﴾ و﴿إِيَّاكَ﴾ فإن خطرًا مثل هذا لا يرفعه إلا الله، ولا ملجأ منه إلا إلى الله، وبشكل عاجل ومباشر.

سبحانك ربي ما أرحمك؛ تَقْبل الملتجئ إليك بمجرد دعوة يدعوها يدفعه

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه رقم (١١٠٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) واللفظ له، والبزار (٩٧١٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٣٠): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

الخوف من ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بل جعلت الملجأ خوفًا ورجاءً وعملًا ودعاءً، لذا جاء بعد ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مباشرة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يا رب: إن هذا الخطر الذي لا نظير له على الإطلاق لا تُنجي منه إلا عبادةٌ واستعانةٌ بمستوى ذلك الخطر، إخلاصٌ لله وخشوعٌ بين يدي الله، وخوفٌ ورجاءٌ في غاية الصدق والإشفاق.

الرسالة الخامسة عشرة:

﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾

هذا هو الموطن الذي جاءت فيه إشارة لنا -نحن العابدين- بحرف واحد فقط، وقد ورد في هذه الآية مرتين هو حرف «النون» وتُسَمَّى نون الجمع (نعبد ونستعين)

أليست لهذه حكمة ربانية تربوية بالغة ككل حرفٍ في كتاب الله العليّ الحكيم؟

فَلْننتبه جيدًا إلى هذا الحرف العظيم في هذا الموضع الكريم من [أمّ الكتاب].

اقرأ ما سلف من الآيات وابحث؛ هل ترى لك أو لأحدٍ من الخلق في الآيات الأولى «لأمّ الكتاب» ذكرًا صريحًا، أو ضميرًا ظاهرًا، أو ضميرًا مستترًا، أو أي إشارةٍ، هاك الآيات السابقة وانظر: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

والجواب: لا لم أجد إلا كلمة «العالمين» وإنما ذُكرت تبعًا لاسم الله في قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو اسم من أسماء الله الحسنى.

فإن سَأَلتَ: لماذا لا يوجد ذكرٌ صريحٌ لمخلوقٍ؟

كان الجواب: هل يمكن أن يُذكر اسم أحدٍ إذا ذكر اسم الله، وكيف يُذكر أحد

والآيات الأولى كلها أسماء الله الحسنى، ولذلك فإنه حين ذُكر هنا حرف النون جاء يشير لنا نحن كعابدين، وَحُقَّ لمن تقدست أسماؤه وتقدمت في أول (أمّ الكتاب) حمده وآلاؤه أن يُعبد، لذلك كان هذا هو موقع العابدين، أما أولًا فلا والله، وهذا عنوان التفريق بين الله -سبحانه- وبين عباده.

فهذا موطن خلاص الإنسان من عبودية نفسه، وعبودية غيره، هنا موطن تحرر النفس من نفسها، وفكها من قيود ذاتها، أتدري لماذا؟

لأن أي تفكيرٍ بإعجاب في داخل الصلاة بذاتك، كتفكيرك بما عندك من القوة أو المال أو الثياب التي تلبسها أو التفكير بالسيارة، أو حسن المنزل أو الممتلكات وما إلى ذلك، فإنما أنت تجعل حُجُبًا مظلمةً تحجب قلبَكَ عن نور جلال رب العالمين لعبادهِ، وبهذا يتخلف قلبك عن القلوب المؤمنة التي لم تَذْكر إلا الله -سبحانه- في لقائه.

ثم: تتبَّعْ حركةَ نفسِكَ في صلاتك من خلال حركة تفكيرك، تتبَّع ماذا يصنع الشيطان -نعوذ بالله منه- بخفةٍ لا تكاد تُدرك، ستجد أن ذاتك هي مركوب الشيطان النافذ إلى حصن الخشوع في الصلاة، وستجد أنك تذهب مسرعًا، بخفة، مع ذاتك مسترسلًا بالتفاصيل المختلفة حتى تنتهي صلاتك، ومن استمرَّ مع الشيطان في هذا -وهو لا يدري- نقله إلى التفكير بذوات غيره، لكن لما كان إحضارُ ذواتِ الغيرِ مستحيلًا، فقد كان إحضار أسمائهم في الذهن يغني عن ذلك، لهذا يجتهد الشيطان على صاحبه بإحضار أسماء الآخرين لصلاته، وكل اسم يُحضره الشيطان يُحضر معه مباشرةً صفات ذاته بالتفصيل!

أرأيت الآن لماذا كانت البداية تحديدًا باسمه -سبحانه- ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم تَبِعَتْهَا أسماؤُه الحسنى تترى، فإن القلب الذي عرف عظمة البداية بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لم يذكر أسماء أخرى مع اسم الله ولا ينبغي ولا يليق.

حقًّا إننا نبتدئ بذكر «اسم الله» ولكن يجتهد الشيطان في تهوين الاسم في نظرنا، ولا يزال يدق على أنه مجرد اسم، إنه أحرف، وربما قال: حقًّا إن الله عظيم لكن هذا اسمه وليس هو الله! فيمرُّ المصلي على اسم الله بهذا التهاون، ومن ثَمَّ يُدْخِلُ على قلبه الأسماء الأخرى، فيصبح مرتعًا وملعبًا وربما معبدًا للذوات الأخرى من خلال دخول أسمائها بعد ما غاب اسم الله -سبحانه-.

أَوَ ما فكَّر هذا المتهاون بالاسم أن الله -سبحانه- حين أراد أن يُعرِّف آدم بكل شيء عرَّفه بأسماء كل شيء وقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].؟!

والآن أجبني: كيف تَعْرِفُ الله -سبحانه- إن لم تعرف أسماءه وتجلياتها وتعبداتنا لها، أعطني طريقًا آخر؟ أَوَمَا فَكَّرَ هؤلاء بحقيقة أسماء الله، وكيف عرفنا الله بأسمائه، إن الله هو الرحمن، والرحمن هو الله، والله هو الرحيم، والرحيم هو الله، هكذا عَلَّمنا الله ذلك عن نفسه في كتابه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢]، وما قال: اسمه الرحمن الرحيم، بل هو الرحمن الرحيم، ثم كيف تدخل الأشياء الأخرى عليك في صلاتك إلا بأسمائها؟

وبناءً عليه فإما أن تَعْلُوَ أسماء الله الحسنى أو تَعْلُوَ الأسماء الأخرى.

فمن سار مع أسماء الله الحسنى في بداية الفاتحة نوَّر الله قلبه، فغابت عنه كل أسماء الذوات الأخرى وأولها ذاته.

هكذا جاء اسم الله عند ابتداء اللقاء، وأعقب هذا ذكر الاسم في بداية كل ركعةٍ، وربما أكثر من مرةٍ ثم التكرار في كل صلاةٍ، وكل ركعةٍ، ثم إن مرور اسم الله على القلب بهذه الكثرة لابد أن يكون له أثرٌ بليغٌ في أرض القلب، فإنَّ لطلوع الشمس الدائم على بقعة من الأرض أثرًا في تطهيرها وتغذيتها لا تعوضه كل أجهزة الإنارة والحرارة في الدنيا، حتى لو كانت تلك البقعة مستنقعًا -وكلام الله أعلى وأجلّ-.

وهذه الإشارة تُظهر لنا كيف أن أم الكتاب هي الأصل، وهي [الأم] في كل ما ورد في الكتاب وفي السنة في أسماء الله الحسنى ومنهجية التعبُّد فيها وكل ما يتعلق بها.... ولكن ما هذه الإشارة التي ذكرتُ إلا خيط نور ضئيل؛ يفتح الطريق لمن أراد بلوغ الحق في معرفة أسماء الله الحسنى... ومعرفة مقتضياتها، وتجلياتها وتعبُّداتها.

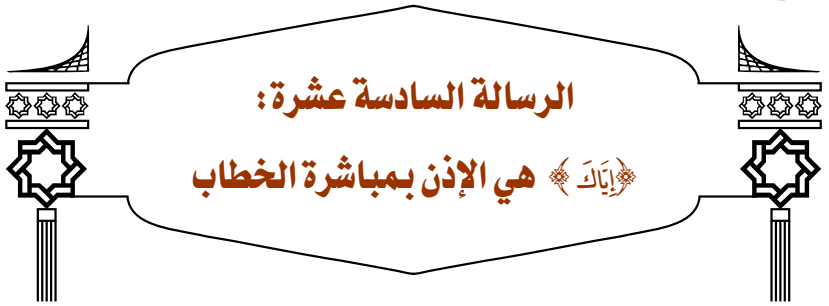

الرسالة السادسة عشرة:
﴿إِيَّاكَ﴾ هي الإذن بمباشرة الخطاب

يقول أهل اللغة: إن ﴿إِيَّاكَ﴾ تفيد الاختصاص، وتقديم إياك على «نعبد» و«نستعين» يفيد مزيد الاختصاص، فهل هذا التفسير وأمثاله يشفي القلب ويزيد الإيمان فيه؟!

إن للقلب رؤيةً أخرى وحديثًا آخر بعد هذا، إن القلب يجد أن في ﴿إِيَّاكَ﴾ مزيد الرهبة فيها لمزيد القرب من الله –سبحانه–، كما يجد فيها مزيد الأمان، لأن القرب من الله يجمع على العبد الرهبة منه والأمان به، مثل الترهيب، فإنه يزيد العبد خوفًا من الله وفرارًا إلى الله في آنٍ واحدٍ، كيف وهذه هي المرة الأولى في «أمّ الكتاب» التي يأتي فيها الخطاب مني أنا العبد مباشرة إلى ربي، فأنا من يقول: ﴿إِيَّاكَ﴾، والله هو من أذن لي أن أقول: ﴿إِيَّاكَ﴾، بل الله هو من أنطقني أن أُخاطبه –سبحانه– بـ ﴿إِيَّاكَ﴾.

أَفَتراني أقول: ﴿إِيَّاكَ﴾ لربي وقلبي في غير هذا الوادي المقدس، وأي معنى لإياك في لغة العرب ينفع إذا كان القلب لم يوجه الخطاب أصلًا، فما هي إلا حركة لسانٍ بأحرفٍ والقلب عنها منحرف!

ألا حُقَّ للقلب أن يتقرَّب كلما قرأ ﴿إِيَّاكَ، وَإِيَّاكَ﴾، بل حق للقلب أَنْ يستشعر الاستئذان على ربه، كيف وقد تحقق اللقاء الفعلي كلما قال: ﴿إِيَّاكَ، وإِيَّاكَ﴾، ألستَ تُوجِّه الخطاب إلى الله –سبحانه– بقولك: ﴿إِيَّاكَ﴾، ألست أنت

الآن في حالة لقائه وتقول له -سبحانه-: ﴿إِيَّاكَ﴾، إذًا فأنت في اللقاء حقيقة ومع هذا تنادي أو تناجي ربك بقولك: ﴿إِيَّاكَ، إِيَّاكَ﴾ وإلا فَمَن المعنِيُّ بـ ﴿إِيَّاكَ﴾ وأنت في الصلاة إلا الله ﷻ؟!

لاحظ كيف أنه اجتمع في هذه الآية المعبود الحق مع العابدين، فكان الاقتراب لدرجةٍ لا تُوصف، فهذه ﴿إِيَّاكَ﴾ وآخرها حرف الكاف والذي يشير إلى الله -سبحانه-، وهذه ﴿نَعْبُدُ﴾ وأولها حرف النون والذي يشير للعابدين، فأي تشريفٍ للعبد مثل هذا التشريف بهذا التقريب؟

ليستْ هذِهِ لفتةً لغويةً، إنما هي غاية كل عبد يتحسَّسها قلبه، فيفرح بها وينشرح لها، ويجد فيها مقامًا وتقريبًا، فكم نَبْعُدُ عن غاية القرآن حينما نتغزَّل باللفتات اللغوية ونحوها، بينما الحقيقة في كلمات الله وأحرفها أنها للمؤمنين مقامات وليس هدفها أن يشتق منها في اللغة اشتقاقات.

ألا لا تحسبنَّ بلوغك هذا الخطاب المباشر بقوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ جاء دفعةً واحدةً، ولا تحسبن هذا الترفيع للعبد جاء فجأةً أو قفزةً واحدةً، ارجع إلى أول «أمّ الكتاب» وسوف تعرف كيف ترقّى العبد وترقّى حتى بلغ هذا التقريب والاقتراب، إنه لا يزال يتقرَّب حتى اقترب، وما اقترب إلا بتقريب الله -سبحانه- له، ألا ترى أن البداية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كانت خالصة لله، مُعلنةً اسم الله إلى أن يُحيلها الابتداء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إلى بلوغ رحمة الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثم ارتقى بعدها حين أعقبها بالافتتاح بالحمد والثناء على الله، وهذا هو مفتاح قبول للعبادة والطلب، ومنهج رسول الله ﷺ في دعائه، ثم يكون الارتقاء بعد الحمد وذلك بالثناء على الله، وهي مرتبةٌ بعد مرتبة الحمد وفوقها، ولذا

جاء في الحديث: فإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: «أثنى عليَّ عبدي»، ثم تأتي المرتبة الأعلى وهي تمجيد الله -سبحانه-، ولذا جاء في الحديث: «فإذا قال العبد: مالك يوم الدين، قال الله: مجَّدني عبدي»، ولذلك فإن البداية لا تكون أبدًا بالتمجيد كما لا تكون بالثناء، وهنا يأتي سؤال الغاية: فماذا بعد ما عرجتْ «أمّ الكتاب» بصاحبها كل هذا العروج واقترب هذا الاقتراب، وتخطَّت به كل المراحل والحُجُب، إلا أن يُؤذن له بخطاب الله -سبحانه-، أليس طبيعيًّا أن يُقدِّم الآن لربه عبادته مباشرة، وطبيعيًّا أن يطلب من الله معونته، وأن يمنَّ الله عليه - وهو سبحانه الكريم - فيجعله يخاطبه بشكل مباشر خطاب الحاضر لا الغائب، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

أيها القارئ والسامع لكلام الله.. ولأم الكتاب خاصة: أي فضل عليك أعظم من ﴿إِيَّاكَ﴾، لأنه لا قُرب أقرب من ﴿إِيَّاكَ﴾، فهل يستيقظ القلب من رقدته كي يؤذن له بالاقتراب الحق بـ ﴿إِيَّاكَ﴾؟.

وهل رأيت معراجًا بل مقامًا يرتفع منه (الإحسان) حيث تخاطب منه وبه الله ﷻ مثل ﴿إِيَّاكَ﴾؟

انظر في آيات الله كلها في الكتاب العزيز وسوف تجد ما أكثر ما خاطب الله عباده وقرَّبهم وقرَّبهم، لكنك لن تجد أنه -سبحانه- خاطبهم وعَلَّمهم كيف يخاطبونه، ورفعهم وتكلم -سبحانه- عنهم متقربين إليه بخطاب المباشرة بقولهم: ﴿إِيَّاكَ﴾ إلا في موضعين وفي آية واحدة هي هذهِ الآية وحدها ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فهل عرفنا الآن لِمَ -كانت- هذهِ السورة المباركة هي أم الكتاب؟!

هنا تنفتح البصيرة على معانٍ أخرى لـ «أمّ الكتاب» فإذا بها تأخذ بقلب العبد وهو يرى ما يرى من ترابطها فيصبح في حالٍ غير حاله الأول، ويصبح يخاطب ربه -سبحانه- من كل موقعٍ، وكلما كُشِف له شيء زادت معايشته لمعاني الآيات، وزاد يقينه بالحياة التي جعلها الله في هذا القرآن والسر الذي ادَّخره الله فيه ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

اترك الآن قلبك ينطلق إلى ترابط آيات «أمّ الكتاب» من موقع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فلتكن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي المركز، هي المحور، ولننظر للسورة من خلالها.

أؤكد ثانيةً فأقول: انطلق من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى كل الآيات التي سَبَقَتْهَا ثم إلى الآيات التي لَحِقَتْهَا، وانظر لقلبك كيف يخاطب ربه.

يا رب كيف لا نتقدم بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وقد كان اسمُك العظيمُ هو أولَ ما ابتدأنا به ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، الله الذي له الأسماء الحسنى، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وكيف لا نرفع شكرنا من كل قلوبنا بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأنت صاحب النعم كلها، كيف وقد ابتدأت أمّ الكتاب بعد البسملة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فالنعم كلها منك وحدك لا شريك لك لأنك ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميعًا، «فالحمد لله رب العالمين».

وكيف أُثْبتُ صدقي بطلب رحمتك ما لم أقدِّم هذا الدليل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أَوَلَمْ تقلْ قبلها: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؟!

وكيف أعاجل الفرار من النار بالفرار إليك إلا بإعلان ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لو لم تقل قبلها: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؟!

أيها القلب ارجع ثانية على كل ما مرَّ في الفاتحة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولسوف تجد فيها أحسن مُعين لفهمها وترابطها والعروج إلى ربك من خلالها.

فيا رب: لأنك أنت الواحد الأحد الذي لا يصح الابتداء إلا باسمه، فكان أولًا ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ولهذا فنحن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولأنك ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي كل رحمةٍ فمنه وحده لا شريك له فنحن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولأنك صاحب النعم وكل الخلق يرفعون حمدهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وأنت ربنا وربهم جميعًا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فنحن يا رب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ولأنك لا منجى منك إلا إليك وأن المصير إليك، وأن يوم الدين ملكك وبيديك ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فنحن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

يا رب: وإنا يا رب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ رجاءَ أن تتقبل ذلك منا وتستجيب دعاءنا الآتي بعدها: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

يا رب: إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علامة صدقٍ على طلب من قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

يا رب: وإنا إذ نتقدم بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنَّا نرجو أن تجعلنا أبعد ما نكون من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

مَن فتحَ الله عليه وعرَّفه بما في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بلغ ما ذكرنا مما لا يُكتب ولا يُنطق، ووجدانه حين يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإنما يحقق العبارة كي تطابق حاله مع من يخاطبه، ووجد أنه والخلق جميعًا يشتركون في العبودية المطلقة، وينفرد الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد بالألوهية، والربوبية لأنه ﴿اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨]، ووجد -والحال هذا والموقف هذا- رهبة العبد إذا انفرد بربه وإن اصطف بجواره ما لا يُحصى من الخلق.

تمرُّ بالقلب حالاتٌ يجمع قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مع ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في الفكرة، وتمرُّ به حالات أخرى يفرزهما عن بعضهما، ويرى بما يَهَبُه الله لهذه خطابها ولتلك خطابها، وأنا حين أذكر هذا أترك ذلك للقلب حين يُلاقي ربه في عبادته، فالله -سبحانه- هو من سيقذف فيه هذا النوع أو ذاك من الخطاب أو يختار له ما يشاء، وكل ما يختاره الله هو الخير، وهو الحكمة، فإياك أن تنظر لها بمنظار القارئ لهذه الكلمات الآن، وربما قلت: قد كثرت عليَّ، بل قل: بل أَكْثِروا عليَّ.

الرسالة الثامنة عشرة:

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

يا رب: لأنك الواحد الذي لا يصح الابتداء إلا باسمه، وقد أعلنَّا ذلك أولًا، بل أول الابتداء؛ فحرف الباء في البسملة من معانيها طلب الاستعانة، فإنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولأنك مالك كل شيءٍ وعنوان ذلك هو الأسماء الحسنى في «أمّ الكتاب»، فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولأن الحمد والنعم والملك لك لا شريك لك فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولأن مقصودنا رحمتك في الدنيا والآخرة فنحن برحمتك نستغيث، ولذا فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فيا رب: لأنك ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأول حرف ذُكر قبل هذه الأسماء هو «بسم» عنوان الاستعانة بك فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولأنك أمرتنا إذا أردنا الاستغاثة والاستعانة أن ندعوَك بأسمائك الحسنى ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، فنحن يا رب ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾،وكيف لا والمطلع المبارك لهذه السورة المباركة هو أسماؤك الحسنى، وأن الحمد لك وحدك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وأنت تربي العالمين وهم عبادك بالنعم ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فنحن يا رب ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على شكرك وذكرك وحسن عبادتك، ولأننا يا رب لن نبلغ شيئًا إلا برحمتك لأنك ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولأن السلامة يوم الدين لا يمكن أن تتحقق إلا من ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وأنت يا رب ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وعليه فإنا إذا أردنا التوسع في هذا الطريق، طريق القلوب الذي فتحه الله -سبحانه- مع كلامه، وإحكامه، وإحكام ترابطه فسوف نجد أن السورةَ كلَّها ترتبط بهذه الآية، أي ما قبلها وما بعدها على حدٍّ سواءٍ، ولو أردنا التوسع أكثر فلسوف نجد أن كل آيةٍ بل كل عبارةٍ في آيةٍ ترتبط بكل السورة مفصلة على حدٍّ سواءٍ، وإذا أردنا التوسع أكثر -وفتح الله سبحانه لنا- فسوف نجد أن كل ما في القرآن يرتبط بالفاتحة على حدٍّ سواءٍ، ولو بيَّن الله لنا أكثر لظهر لنا جيدًا أن كل آيةٍ كريمةٍ في القرآن الكريم ترتبط بفاتحة الكتاب على وجه التفصيل الدقيق؛ أَوَليست هي أم الكتاب؟!

فهل يُطيقُ الإحاطةَ بها إنسٌ أو جِنٌّ؟!

ألمْ يقل النبي ﷺ عنها: إنها «أمّ الكتاب»؟!

ألمْ يفرِدْها الله وحدها عن الكتاب فقال: «السبع المثاني والقرآن العظيم»؟!

ألمْ يقدِّمها الله -سبحانه- على القرآن العظيم وكُلُّه كلامه العظيم -سبحانه-؟!

بل لن يطيق ذلك إلا من أحاط بكل ما أنزل الله من قبل، ألم يقل النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا**»[(١)] هكذا من كل وجهٍ من الوجوه؟!

فهل أدركتَ أيها المسلم الوهن الذي بلغ بنا حين ظننا أننا يمكن أن نفسِّر أمّ الكتاب، لا واللهِ وأنا أول المتبرئين من هذا الزعم الباطل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠٥)، وأحمد (٨٦٨٢) واللفظ له، وصححه الأرنؤوط.

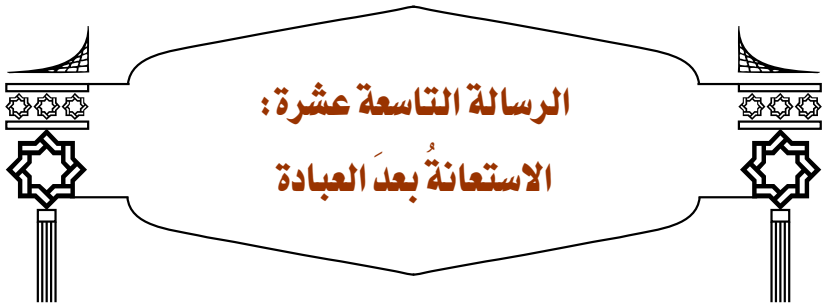

الرسالة التاسعة عشرة:
الاستعانةُ بعدَ العبادة

ألا يا أيها المتدبر: إن قلت: كيف جاءت الاستعانة بعد العبادة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟

جاءك الجواب من كل وجهٍ ووجهةٍ يسعى، وإنما أجيبك بهذه الأجوبة لترى بعضَ الحكمة في كلمات «أمّ الكتاب»، وحكمةً من كل كلمةٍ وموضعها، فتدرك ما وراء ذلك مما لا يُحصى، **وهذا جواب:**

أولًا: ألم تتقدم بطلب الإعانة بشكلٍ مُضمر في أول كلمة بقولك: «بسم الله» أي أبدأ مستعينًا ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فإنه إذا كانت الاستعانة في الابتداء لا يمكن أن يبقى الإضمار كذلك وقُدَّام العبد أخطر المخاطر... فإن أمامه يوم الدين، فلا بد أن يفزع العبد هاتفًا بربه بأقوى استغاثة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأمر هنا لا يتحمل الإضمار.

وجوابٌ ثانٍ يقول لك: ألا ترى فضل الله بعرض أسمائه الحسنى بعد «بسم»، إن هذه العظمة تنتزع الاستغاثة من قلب العبد فلا يملك إلا أن يناديَ بها صريحة غير مضمَرةٍ فيقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كيف وقد رأى قبلها **أسماء الله الحسنى**: ﴿اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، رَبِّ الْعَالَمِينَ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أفيكون عاقلًا من يفوِّت هذا العطاء الذي لا نظير له فيُسِرُّه أو يُضْمِره ورب العالمين يعلن أسماءه أمامه؟

ومتى ذَهِلَ موسى عليه السلام عن نفسه فطلب ما لا يجوز له مع ربنا ﷻ مع أنه

أعلم الناس بربه ﷻ إلا بعدما ﴿كَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، فطلب طلبه الذي ما طلبه سواه عليه السلام، فرُدَّ وعُرِّف، فقال -سبحانه-: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وجوابٌ ثالثٌ: إن العبد وبعد ما قدَّم العبادة فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ استُحبَّ له أن لا يتوقف عند هذا الحد، بل يطلب المزيد عليها، وهذا لا يكون إلا بإيمانه بالله.

وجوابٌ رابع: إن العبد بطلبه الاستعانة ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أثبت خوفه على عبادته تلك أن تذهب أو نفسه أن تَزِلَّ فطلب الثبات، وهذا لا يكون إلا بإعانة الله.

وجوابٌ خامس: إن عنوان العبادة المقبولة محبتها ومحبة الزيادة فيها، فالعبادة درجات والعباد مقامات، فقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أحسن دليل على محبة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وهو أحسن دليل على قبول ﴿نَعۡبُدُ﴾.

وجوابٌ سادس: كأن العبد يقول: يا رب: قد أعنتنا على أداء هذه العبادة فأدَّيناها، ونحن نستعينك استعانة مطلقة على إعانتنا إعانة مطلقة لنعبدك في كل مجال من المجالات، وتُعِينَنَا.

وجوابٌ سابع: تقول فيه: يا رب أمرتني بعبادتك فحملتُ بدني ووقفتُ بين يديك، ولكنني لا قدرة لي على قلبي، فإنني أستعين بك على إحضار قلبي بين يديك، فإنني لا أقدر عليه.

وجوابٌ ثامن: يا رب ها أنت قد وضعتَ صراطًا مستقيمًا ولا قدرة لنفسي

على السير عليه بغير أن تمكِّنني ذلك، ولذا فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن أول مذكورٍ بعد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كان ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

يا رب: إنَّا نستعين بك لكل ما في «أمّ الكتاب» من خيرٍ وفضلٍ وعلمٍ، وبغير إعانتك لن نحصل على شيء، فإنا نستعين بك على قبول ابتدائها، ومن لم يُؤذن له بالابتداء كيف يقبل بعد ذلك، لذلك فنحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على قبول الابتداء بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ونحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على رفع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ونحن بك نستغيث ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على استنزال رحمتك ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وما هذا الدعاء إلا منها «يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث»، ونحن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ - وهل من حاجة لمعونة مثل حاجة ذلك اليوم؟!-.

الرسالة العشرون:
أسئلةُ الفتحِ في ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾

أي أهميةٍ للصراط المستقيم حتى تكونَ الهداية له هي المطلوب المباشر في «أمّ الكتاب».

أي أهمية في الحياة كلها للهداية للصراط المستقيم حتى نطلبَه في كل صلاةٍ على مدى الحياة وحتى آخر صلاة لنا في هذه الدنيا؟

وما أنواع المخاطر وما شدةُ فَتْكِها لو أن الله -سبحانه- ترك العبدَ واجتهادَه؟ أيهتدي للصراط أم لا يهتدي؟

هل ترى شأنًا واحدًا من شئون الحياة المختلفة يمكن أن تهتديَ فيه وتُوفَّقَ فيه دون هداية الله لك؟!

ولكي أوضِّحَ الأمر أكثر: ماذا إذا لم يوفِّق اللهُ عبدَه لاختيار الزوجة الصالحة؟ ماذا إذا لَمْ يَهدِهِ الله للشريك الصالح؟ وللصفقة الناجحة؟ وللسفرة المظفرة؟ وللعلم النافع؟ وللولد البار؟ وللمسكن الصالح؟ وللمركب الهنيء؟

ماذا إذا لمْ يَهدِهِ إلى طريق السلامة من المخاطر المنظورة، والمخاطر غير المنظورة؟

ماذا إذا لمْ يَهْدِ قلبه للفكرة المهدية؟

أقليلٌ أن يُشَرِّع الله -سبحانه- لك أن تدعوه في كل ركعةٍ بقولك: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾؟!

هل تجد علاقةً ما بين دعائك ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ مع آيات الهداية في الشئون الأخرى كلها، وفي شئون الحياة وتفاصيلها؟

وهل من أحدٍ يملك الهداية غير الله؟ أَوَلَمْ يقل الله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

أليس هذا هو الدعاء الصريح الوحيد في الفاتحة، فلماذا جاء لموضع الهداية خاصةً؟

ولماذا جاء هذا الدعاء بصيغة «الجمع» «اهدنا» وما جاء بصيغة «اهدني»؟

هل فكرت أنَّ معك آخرين تريد لهم الهداية، ومن تريد لهم الهداية، ومن هم هؤلاء الذين دخلوا معك كنفسك في أغلى طلب «اهدنا»؟

أليس من الممكن أنك لو قلت: «اهدني» أن يردك الله لتقصير منك يعلمه الله؟ لكن أَيَرُدُّ اللهُ الجموعَ كلَّها وقد جعلت خطابها كخطاب النفس الواحدة، فهي تقول: «اهدنا»؟

أليس من عادة ربنا وكرمه أن يهب المسيئين للمحسنين؟

أليس من عفو الله -سبحانه- أن يقبل شفاعة الشافعين، وأن لا يشقى الفرد في الصالحين، وهو الذي قال -في الحديث القدسي-: «**هُمُ القومُ لا يَشْقَى بهم جليسهم**»(١).

والآن تعالَ وانظر إلى أدعية النبي ﷺ، ألم يُعَلِّم النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ وثَبِّتْ لِسَانَهُ**»(٢)، ومن أراد أن يعرف مناسبة هذا الدعاء لعليٍّ فانظر لما تعرَّض له رضي الله عنه في حياته.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣١٠)، وصححه الألباني.

مَـن الـذي علَّمـه النبيُّ ﷺ الدعـاءَ الـشهـيرَ: «**اللَّهُـمَّ اهْـدِنَـا فِـيمَنْ هَدَيْـتَ، وَعَـافِنَا فِيمَنْ عَـافَيْـتَ، وَتَوَلَّنَـا فِيمَـنْ تَوَلَّيْـتَ، وَبَـارِكْ لَنَـا فِيمَـا أَعْطَيْـتَ، وَقِنَـا شَـرَّ مَـا قَضَيْـتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لا يَـذِلُّ مَـنْ وَالَيْـتَ، ولا يَعِـزُّ مَـنْ عَـادَيْتَ، تَبـارَكْتَ رَبَّنَا وتَعَـالَيْتَ**»[(١)].

أليس هو فِلْذَةَ كَبِدِهِ الحسنُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالب؟

ألـم يَـدْعُ النبي ﷺ لنفسه، ويُعلِّـم أمتـه هـذا الدعـاء: «**اللَّهُـمَّ اهْـدِنِي، وَيَـسِّرِ الْهُدَى لي**»[(٢)].

(١) أخرجـه أبـو داود (١٤٢٥)، والترمـذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥) وابـن ماجـه (١١٧٨)، وأحمد (١٧١٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن حبان (٩٤٧)، وصححه الأرنؤوط.

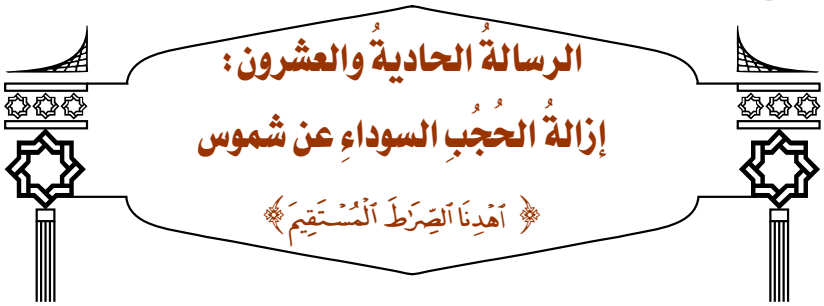

ما زالت شموسُ هدايةِ أُمِّ الكتابِ حبيسةَ ظلامِ الأمة في هذا العصر.. وهي وحدها قادرة أن تنير الظلمات الظاهرة والباطنة جميعًا.

فمتى تجد أُمُّ الكتاب الرجالَ الذين يكشفون الحُجُبَ عن شموسها لتنطلق سهام أنوارها تخترق حجب القلوب المظلمة فتشرق هنالك القلوب وتنشرح الصدور وتهتدى إلى الصراط المستقيم؟

أين الهداةُ الذين يقدِّمون شموس الفاتحة ويقرِّبونها لكل مسلم؟! فإن كل مسلم سيتحول -بإذن الله- إلى داعية إلى الله... حاملًا الدعوة إلى الله وهو ضامن -بإذن الله- بتقديم الهدى الكافي لمن كتب الله له الهداية من العالمين...

فليس ثَمَّ مشروعُ هداية أقوى من مشروع أم الكتاب لأنه من الكتاب، والله -سبحانه- يقول لسيد الدعاة إلى الله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فكيف وهي الدعوة بأم الكتاب!

لذلك فهي الأقوى حجةً، وكل القرآن وآيات الله أقوى، كما أن الدعوة إلى الله بفاتحة الكتاب هي الأوسع على الإطلاق، وذلك لأن كل مسلم سوف يحملها، فكل مسلم قد حفظها، وهذا هو الأصل، وحِفْظ الأصل أسهل في تنظيم المعلومات التي تبنى عليه، وترتيب الحجج، وعدم نسيانها، وهو الذي

يحمل مفاتيح الهداية لغير المسلمين، وإن هذا هو موطن بيان مفاتيح الهداية وتسليط شمس الهداية المباشرة من أم الكتاب، لكنني أترك هذا الأمر هنا لئلا نطيل، إنما الذي أريد أن أُبَيِّنه هنا للناس كافّة: أن كل حاجيات حياة الناس وضرورياتها موجودة في أم الكتاب وهكذا (الأم) هي المرجع في نهاية الأمر...

كيف إذا علمنا وعلم العالَمون أنَّ حَاجِيَّاتِ العالَم المعاصر الضرورية وغاياته التي ينشدها ولم يحصل عليها بعدُ كلها موجودة في أم الكتاب..

أليس صراع العالم المعاصر اليوم على الماديات سواءٌ بين أفراده أو بين دُوَلِه ومجتمعاته؟! كيف وقد أصبحت النفوس فارغة من الإيمان، فهذهِ سورة الفاتحة كما رأيت معينٌ لا ينضب أبدًا من الإيمان، وهل من حاجة للعالم مثل حاجته للإيمان؟

أليس الاضطرابُ النفسيُّ هو الشكوى الدائمة للمجتمعات المتحضرة.. أَوَليس الاضطرابُ ناتجًا عن عدم الرضا..؟!

فهذهِ سورة الفاتحة تُعَلِّم الناسَ الحمد لله، وهل بعد الحمد من رضا، كيف إذا كان اسمها (سورة الحمد)؟

أليست مشكلة العالم العامة هي العنصرية والتفرقة على أساس العرق؟!

فهنا سورة الفاتحة تجعل الناسَ سواسيةً تمامًا، فقال الله -سبحانه- في أولها: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ فالعالَمون واحِدون أو: وُحْدَان ومتساوون، لا فرق بينهم مطلقًا، ويعبدون جمعيهم ربًّا واحدًا.

كما أن ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيها جعل أصل المساواة، وأزال التفرقة في الدعوة إلى الله على أساس ديني؛ فالله لم يفرق بين العالمين في الرزق على

أساس عبادته.. فهو رب العالمين على حدٍّ سواء، ورزقه لهم على حدٍّ سواء، ونعمه متواصلة لهم وإن لم يعبدوه -سبحانه-.

أليست مشكلة من أعوص المشكلات النفسية هي سوء الظن والهموم والغموم وانعدام من يفهمهم أو يرحمهم، ثم إن الهموم والغموم هي أكبر سبب لأشهر الأمراض المعاصرة.

ها هي سورة الفاتحة تُلبِّي علاج هذهِ المشكلة التي هي من أمهات المشكلات، حيث كان أول تعريف لله -سبحانه- لنفسه بهم أنه هو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والآية الثالثة خالصة لهذين الاسمين الكريمين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم إنها تَنْقُلُ العبد مباشرة ولا تجعله مُقْعَدًا تأكله الهموم والغموم وهو عاجز عن فعل شيء، وذلك من خلال قوله -سبحانه-: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإن ﴿بِسۡمِ﴾ تعني كما مرّ معنا الاستعانة بالله ﷻ للانتقال من حالٍ إلى حال أحسن منه.

أليس الناس لهم أديان وملل ولهم آلهة مختلفة وكل إلهٍ يدينون له بشيء ما... ولذلك ألّهوه بالباطل.. أوليس العالَمون يطلبون الحق المُجْمَع عليه وهو على ما يظنون أنه غير موجود؟!

ها هي أم الكتاب تُبيِّن أن الإله المنعم على الخلق جميعًا، والإله الذي كل ما عُبِدَ مِنْ آلهةٍ فلأجلِ إرضائه، وإيصالهم إليه إنما هو الله رب العالمين.. وله في كل الملل والأديان اسم معين، فالفاتحة توصل العباد في أولها إلى هذا الإله المنعم على العالمين أجمعين فتقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهذا هو الحل الذي لا حل سواه، لجميع الأديان والعابدين وهو الحل لأعظم سبب للمشكلات بين الأمم والملل.

أَوَليس الذي جعل الناس ينفلتون من النظام ويعتدون على الحقوق متى أمنوا من العقاب، ويظلمون ويبالغون في الظلم للأمم كما للأفراد هو عدم وجود رادع يردعهم أو عقاب مقرر لهم أو نحو ذلك.

ها هي أم الكتاب تقرر أعظم عقاب حيث قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فهذا هو اليوم الذي لن يفلت منه أحدٌ أبدًا..

ولأن فيها ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو لا يرضى من أحدٍ أن يعتدي على أي أحدٍ من العالمين، لأنه هو خالقهم وهو ربهم وهو ينتقم ممن يظلمهم، ولذا قال النبي ﷺ: «**لا تُرَدُّ دعوةُ المظلومِ**»(١).

ومشكلة الفساد في العالم هو اتباع الأمم للمفسدين في الأرض؟!

بينما دعاء سورة الفاتحة هو الهداية: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ومَنْ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم إلا الأنبياء عليهم السلام وأتباع الأنبياء الحقيقين رضي الله عنهم.. وبغير هذا المعتقد وبغير هذا الإيمان لا يُقبل من الإنسان إسلام ولا إيمان.

إنك لا تجد آيةً في هذهِ السورة العظيمة إلا تلبِّي للناس مطلبًا حياتيًّا ضروريًّا، وتحل معضلة توقفت عندها عقول الناس وقدراتهم، بل كل آية توفر ما لا يُحصى من حاجيات العالمين..

وماذا يريد الناس غير حاجيَّاتهم ومصالحهم ودفع المفاسد عنهم.. أليس

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٩٨) بلفظ: «**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»، وابن ماجه (١٧٥٢)، وحسنه الألباني.

هذا هو ما بعث الله -سبحانه- لأجله الرسالات والمرسلين وأنزل الله لأجله الكتب؟

أرأيت الآن لِمَ قال النبي ﷺ في سورة الفاتحة: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ: «**يَا أُبَيُّ**»، فَالْتَفَتَ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ صَلَّى أُبَيٌّ، فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيْ رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**وَعَلَيْكَ**»، قَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَيْ أُبَيُّ إِذْ دَعَوْتُكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟**» قَالَ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: «**أَفَلَسْتَ تَجِدُ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ أَنْ** ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]؟»، قَالَ: قَالَ: بَلَى، أَيْ رَسُولَ اللهِ، لَا أَعُودُ، قَالَ: «**أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟**» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَيْ رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْبَابِ حَتَّى تَعْلَمَهَا**»، قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي يُحَدِّثُنِي، وَأَنَا أَتَبَاطَأُ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ الْحَدِيثَ، فَلَمَّا أَنْ دَنَوْنَا مِنَ الْبَابِ، قُلْتُ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، مَا السُّورَةُ الَّتِي وَعَدْتَنِي، قَالَ: «**مَا تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟**»، قَالَ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ أُمَّ الْقُرْآنِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا، وَإِنَّهَا لَلسَّبْعُ مِنَ الْمَثَانِي**»[(١)].

وأنا لمْ أُرِدْ إحصاءَ ما في هذهِ السورة الكريمة من حاجِيَّات العالمين التي لبَّتْها وتُلَبِّيها، وأمراضهم التي تعالجها وما إلى ذلك، وذلك لأن هذا بحر

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠٥)، وأحمد (٩٣٤٥) واللفظ له، وصححه الأرنؤوط.

واسع واكتفيت بما خَطَّ الطريق نحو فهم السورة وإنارة شموس الهداية الملازمة لحياة الناس..

أما صياغة هذهِ الهدايات وكيف تُقَدَّم فهذا شأن آخر، وهو سهلٌ، والوسائل متنوعة وكثيرة وواصلة، والوسيلة الموفقة للهداية إنما هي من الهداية.

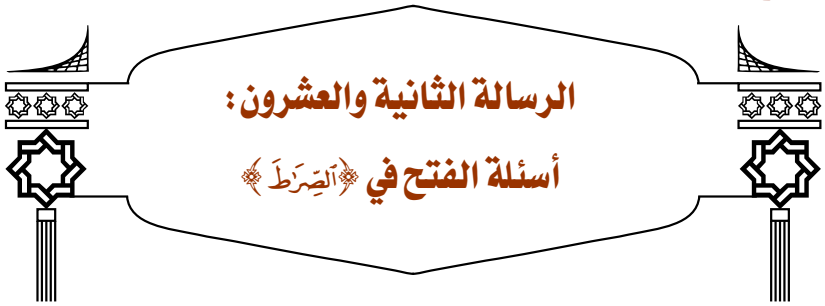

الرسالة الثانية والعشرون:
أسئلة الفتح في ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾

أيُّ صراطٍ يقرع قلبك في كل مرةٍ تقرأ فيها ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أتحسب أن الله –سبحانه– اختار لك كلمة ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ إلا ليجرَّك الربط الذهني مباشرة شئت أم أبيت بذلك﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾؟!

أليس الصراطُ هنا هدايةً وعملًا، وهو هناك المَعْبَرُ الأوحد لكل أهل الحساب على متن جهنم؟!

أليس صفة هذا الصراط وذاك هو الاستقامة والحدَّة؟ وإلى أيِّ شيءٍ يوصل هذا الصراط، وإلى أيِّ شيء يوصل ذاك؟!

أليست الطريقة الوحيدة للعبور على ذاك الصراط إنما تكون بالانطلاق وعدم التوقف، وكذلك هو مفعول الهداية الحقَّة إنما يكون بالحركة والانطلاق؟!

أيُعقَل لو أنه كان لله أكثر من صراط لحدَّده الله لنا بصراطٍ واحدٍ وقال: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾؟

أمعقولٌ أن يكون صراطُ الله غيرَ واضحٍ ولا معلومٍ، ثُمَّ يأمر اللهُ الناسَ بالاستقامة على مجهول أو مخفي؟

وهل من شيءٍ أوضح وأظهر وأقطع من «القرآن الكريم» ومن رسول الله ﷺ؟

ألم يقل الله -سبحانه-: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال عن رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ألا ترى السلامة في المشي على الصراط المستقيم هنا نتيجتها السلامة في المشي على الصراط المضروب على جهنم؟

وهل المقصود هو المشي كيفما كان، أم اتباعُ الرسولِ ﷺ في المشي على صراط ربك المستقيم، كما قال -سبحانه-: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

هل حاولت أن تعيش خفقات قلب ذاك الذي جاء دوره -رغمًا عنه- ليعاني العبور على الصراط وويلاته، وهل جعلت نفسك أنت ذاك الرجل؟.

هل تشك أنك سوف تُؤمَر بورود جهنم، أي العبور على الصراط، والله -سبحانه- يحسم كل شك بقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

هل تعرف كم استوقفَتْ هذه الآيةُ أناسًا مِن الصحابة ومَنْ بَعدَهم، وكم أطالوا الوقوف باكين على أنفسهم؟!

كم مرةً فكرت كواحدٍ من أهل المحشر المحتشرين للعبور، وأنت تسمع وسط الأهوال دعاء الأنبياء عليهم السلام عند الصراط يا رب سلِّم، يارب سلِّم؟!

فما لك وللسبل الأخرى التي نصبها الشيطان للناس، ألا ترى أن الشيطان بكثرة سبله التي نصبها للناس أراد أن يُذهل الناس عن الصراط المستقيم، وأراد أن ينصب لهم بدائل، وما من صراط للشيطان إلا حَفَّه بالشهوات والمغرِيات من على أطرافه وجوانبه؟

هل تعتقد صراطًا واحدًا للشيطان -لعنه الله- يمكن أن يغني عن «صراط الله المستقيم»؟!

وهل تعتقد أن طريقًا واحدًا لنا من طرق الحياة لم ينصب لنا فيه الشيطان -نعوذ بالله منه- سبيلًا يشبهه ليشوِّش عليه؟!

وهل تعتقد أن الشيطان -نعوذ بالله منه- لا يقعد للمؤمن على صراط الله المستقيم في كل عملٍ صالحٍ وكل اختيارٍ مستقيمٍ؛ بل كل نيةٍ حسنةٍ وقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

وهل تعتقد أنه لا يقعد له في كل وقتٍ، في ليله ونهاره، في جَمْعَتِهِ وخَلْوَتِهِ، في نيته وفي كلامه، في صلاته وفي صيامه، في حجه وفي جهاده، عند إرادة إنفاقه المال وعند إنفاقه، في علاقاته بأهله ووالديه وأولاده وفي علاقاته بأرحامه وصحبه والناس الآخرين.

أتشك أن الشيطان يدرك أن الإنسان إن سلم منه هنا سلم عند ذاك الصراط، وأنه إن أسقطه من على هذا الصراط سقط هناك من على الصراط معه في جهنم، هكذا هي حسبته ولذلك فهو يقاتل على كل جزئية.

الرسالة الثالثة والعشرون:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

يتوقف أكثرنا في فهم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ على الفهم الذاتي القاصر على القارئ، ففهم القارئ حينما يسمعُ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ هو اهدنا نحن يا ربنا.. وكأن الأمر لا يتعدَّى نفس كل شخص، وكأن الهداية لا تكون إلا قاصرة! مع أن هذهِ الآية تمثِّل المطلب الصريح المباشر الوحيد في هذهِ السورة المباركة.. حالها في ذلك حال قول الله -سبحانه- عن القرآن الكريم: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١-٢]، فالفهم الشائع لهذهِ الآية هو الفهم القاصر وهو أن القرآن لا يكون هدى إلا للمتقين! أولم يُفَكِّر هؤلاء فيما قال الله ﷻ بعدها بآيات: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أليست الآيةُ صريحةً بأن القرآن هدى للناس فيكون المعنى الصحيح الكامل والجامع للآيتين هو أن كتاب الله هدى للمتقين وأنهم لن يكونوا متقين ما لم يحملوا هداهُ للناس، والمعنى كذلك أن القرآن إذا قُدِّم للناس انتفعوا وهداهم كما يهدي المتقين.

بل إن المعنى أن المتقين يهتدون بالقرآن أبد الدهر وهو يهديهم فيما هو واجب وضروري، ويهديهم في ما دون ذلك، وهو لكل شئونهم، أما هدايته للناس فهي الهداية من الكفر إلى الإيمان..

ولهذا فإن قوله -سبحانه-: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، إنما تعني الاهتداء

والإهداء، فالاهتداء أولًا، فمن لم يهتدِ أنَّى له أن يحمل الهدى إلى غيره، وأنى لمن اهتدى إلى الصراط المستقيم أن يتوقف ولو يومًا من عمره عن ذلك، أليس هو صراطًا؟ أليس الصراط هو الطريق؟ وهل جُعِلَ الصراط للقعود عليه أم للمسير عليه؟! ثم إذا كان السؤال مستمرًّا كما هو الواجب في قراءة الفاتحة في الصلاة فماذا يعني طلب الهداية إلى الصراط المستقيم بعدما تحققت الهداية من أول مرة؟! إن الهداية الحَقَّة هي أن تنتقل من مرحلة الاهتداء إلى مرحلة ممارسة الهداية مع الخلق، إلى حمل الهداية إلى الخلق، ولهذا جاء بعدها مباشرة ذكر سادة هداة الخلق وسادة من سلك طريق الهداية وهم الأنبياء عليهم السلام؛ فهم التعريف الواقعي والصحيح لفهم الآية الكريمة بالآية الكريمة التي بعدها، لذا قال -سبحانه-: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهل أنعم على الله على أحدٍ كما أنعم على الأنبياء عليهم السلام؟ وهل كانت مهمة الأنبياء عليهم السلام إلا ممارسة هداية الخلق؟ فما من مُصَلٍّ يقرأ هاتين الآيتين إلا وينبغي له أن يُعَلِّق قلبه بالله بأن يمنَّ الله عليه بأن يكون هاديًا مهديًّا سالكًا سبيل رسول الله ﷺ الذي خَلَف كل الأنبياء عليهم السلام، وأن يجعله نعم الممثِّل والواصل بالهدى في هذهِ الحقبة من الزمان إلى الحقبة التي بعده، وأن يحقق الله له هدايته ويحقق به هداية خلقه إليه -سبحانه-، كما قال ربنا -سبحانه- عن رسوله ﷺ وعن أتباعهم: ﴿قُل هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلمُشرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والعظمة حقًّا في القيمة العظيمة لضمير الجمع في الدعاء بقوله -سبحانه-: ﴿ٱهدِنَا﴾، فإنها تتسع بمقدار همةِ الإنسان، فمن نوى نفسه وحده بالهداية دخل فيها، ومن نوى نفسه وأهله دخلوا فيها، ومن زاد على ذلك قومه وبلده دخلوا

فيها، ومن نوى الأمة المحمدية دخلوا فيها، ومن نوى الهداية لكل هؤلاء وللناس كافة دخلوا فيها، ومن نوى الثقلين دخلوا فيها.. والله يهدي من يشاء، لكن هنا صناعة النفس منذ الأساس، والأساس هو النية، وصناعة الهمة وهي تتسع، ورب العالمين لم يحدِّد، ورسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّما الأعْمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فمَن كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيا يُصِيبُها، أوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيْهِ**»(١).

﴿ ٱهۡدِنَا﴾ تصنع من المسلمين صفًّا واحدًا وروحًا واحدة تنطلق رافعة دعاءها إلى ربها كل واحدٍ من صف الصلاة يدعو الله –سبحانه– للصف كله، والصف كله يرفع دعاءه إلى ربه للخلق جميعًا، فهي الشهادة بأنها أمة الخير والمُحِّبة للعالمين أجمعين الخير... وماذا أكثر من أن تقف في كل صلاة تدعو الله ﷻ للناس كافة بأن يجعلهم الله على صراط الأنبياء عليهم السلام عامة، الذين ورثهم رسول الله ﷺ خاصة.

---

(١) صحيح البخاري رقم (١).

على أي شيءٍ يدل وصف الصراط بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؟

وعلى أي شيء يدل على أنه صراطٌ واحدٌ لا صراطَ مستقيمَ غيْرُه؟

وماذا لو وُصِفَ الصراط بأنه الملتوي، أو المعوج، أو المنحرف، أو لم يوصف بأي شيء؟

ألا يدل وصفه بالمستقيم بأنه الصراط الوحيد الواصل وأنه الأسرع كذلك، فأقرب الخطوط إلى الغاية المطلوبة هو الخط المستقيم؟

إذًا: فكيف حرصك على هذا الصراط الأوحد والأسرع والأقرب، ولا سلامة إلا بسلوكه؟!

والآن هل ترى وصف الصراط بأنه مستقيم لا يُصبغ أصحابه بالاستقامة، فتصبحُ تلك سمَتَهم وذلك منهج حياتهم في كل شيء؟

كيف لا وسيدهم وسيد المستقيمين على صراط الله المستقيم هو رسول الله ﷺ، فقال -سبحانه-: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود: ١١٢].

هل ترى الصراط المستقيم يختص بعهد النبي ﷺ أم أنه مستقيمٌ واصلٌ إلى يوم القيامة، لا يقطعه قطاع طرق، ولا تطمسه الظلمات والفتن مهما اشتدَّتْ؟!

إذًا فما علاقة الصراط المستقيم بسالكيه إن سلكوا أو تنكَّبوا، إن عاشوا أوماتوا؟!

ألم يقل الله -سبحانه-: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]؟!

هل تعتقد أن المشي على الصراط المستقيم عند قلة الفتن كالمشي عليه في أوقات شدة الفتن؟!

ألا ترى المناسبةَ واضحةً بين الفتن التي تتخطف الناس من على الصراط المستقيم في الدنيا وبين الكلاليب التي تتخطف العابرين على الصراط المستقيم المنصوب فوق نار الله الموقدة؟!.

إذًا: ألا ينبغي أن يكون حذرك من الانحراف عن هذا الصراط المستقيم بمقدار مخافتك من تلك الكلاليب التي تتخطَّف الناسَ من على ذاك الصراط.

ألا يعني هذا أنَّ لكل عبدٍ كلاليبَهُ التي تنتظره؟ فكلاليب كل واحدٍ لا تخطئه أبدًا، وحاشا لله أن يكون التخطُّف فوضى حتى وإن كانت الخلائق كلها في لحظة واحدة على الصراط.

أليس من فضل الله -سبحانه- أنَّ مَنْ تَخَطَّفَتْهُ الفتنُ وَزَلَّ عن الاستقامة على الصراط دهرًا من الزمان ثم تاب وأناب أن الله لا يؤاخذه، وأنه ومَن لم يُفتتنْ سواءٌ بسواءٍ؟

أليست التوبة تعني أن صاحبها استقام على الصراط في الجزْء الأخير من حياته، والعبرة بالخواتيم، أليس الأصل أن الله يريد رحمة عباده، ألم يذكر الله -سبحانه- ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في هذه السورة مرتين؟!

أليس صراط كل إنسانٍ بمقدار مسئوليته وأداء الحق الذي تحمَّله في الدنيا.

أيُّ الخَلْقِ أشدُّ خطرًا على الصراط، وأيُّ الخَلْقِ أعظمُ مجازفةً بنفسه عند عبور النار؟.

الحقيقة أن كل واحدٍ في البلد يتحمَّل صراط نفسه لأنه فرد، ويتحمل كلُّ راعٍ صراطَ بلدٍ بأكمله، وإن شئت قلت: صراط كل الناس في داخل صراطه، وصراط الراعي جامع لكل صراطٍ في بلده، فكيف يأمن من لا يدري من أين يُؤتى؟!

كيف إذا كان هو قد تنكَّب عن صراط الله كاملًا، وترك صراط ربه وصراط رسوله ﷺ، وأصبح لا صراط له!

ألم يُعرِّف الله -سبحانه- ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ بأنه المستقيم، فماذا يعني أن يُعرِّفَ الله الصراطَ المستقيم بأنه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾؟!

هل تفكرت بهذا مرةً؟

ألا يعني هذا تعظيم أمر السالكين الصراط المستقيم، فهم سلكوا الصراط المستقيم حتى أخذوا صفته فما عاد الصراط يُعْرَفُ إلا بهم فأصبح ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾؟

ألا يعني هذا أن الدين يُعرَف برجاله، وأن الحق يعرف بأنصاره، وأن العقيدة ليست كما نراها اليوم دروسًا نظريةً ومناهجَ دراسيةً تعليميةً، فهذا المنهج هو أكبر أدلة كذب السالكين.

ألم يُعرِّف الله -سبحانه- الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعمت عليهم، أي فلا استقامة للصراط إذا اعوجَّ أصحابه، هذا لبيان واقعية هذا الدين، وإن كان الصراط هو الصراط حتى لو ضلَّ أكثر الناس أرأيت مقام القدوة في صراط الله المستقيم، أرأيت خطورة أن يقول الإنسان قولًا ثم يخالف قوله وخصوصًا إن كان من أهل العلم.

ألا يعني مخالفة أعمال هؤلاء لأقوالهم، ومخالفة مواقفهم لصراط الله المستقيم، أنه انحراف للصراط نفسه واعوجاج والتواء فيه، أتدري لماذا؟

ألم يعرِّف الله -سبحانه- صراطه المستقيم بأنه صراط الذين أنعمت عليهم، ألا يعني هذا أن استقامة الصراط كأنها اتحدت مع استقامة هؤلاء عليه، فهم في أعين من لا يعرف الإسلام هم الصراط، بل ألا ترى أنهم في أعين عامة المسلمين هم الصراط المستقيم، فهم الحجة والمحجة، وقد جعلهم الناس بينهم وبين الله حجة؟

فإذا كان صراط الله واضحًا لا عوج له، وإذا كانت فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لها، وإذا كان كتاب الله محفوظًا، وإذا كان هدي رسول الله ﷺ محفوظًا، فمن أين يأتي النقص والعيب والخلل إن لم يكن من الذين يُعَدَّون من أهل الصراط المستقيم وما هم عند الله كذلك؟

فهل رأيتم إلى أي مدىً خطورةَ انحراف أهل العلم والدعوة عن الصراط، إن هم نافقوا أو كتموا أو شهدوا زورًا؟!

هل لهذا من معنى إلا أنهم باعوا الصراط المستقيم واشتروا سبل الشيطان؟

فهل يمكن لأحدٍ أن يتصور عذاب الله لهؤلاء؟

وهل تتصوَّرون الشرف الذي يهبه رب العالمين -سبحانه- لرجالٍ يختارهم ليكونوا كأنهم صراطه المستقيم، وهم الذين يعرف الله بهم صراطه المستقيم؟

وأخيرًا هل تتحقق الاستقامة على معتقد الإنسان، أم على استقامة لسانه، أم استقامة عمله وأخلاقه ومواقفه، أم على استقامته في الأمور المالية أم في الأمور الحياتية كلها، أم في كل ذلك؟!

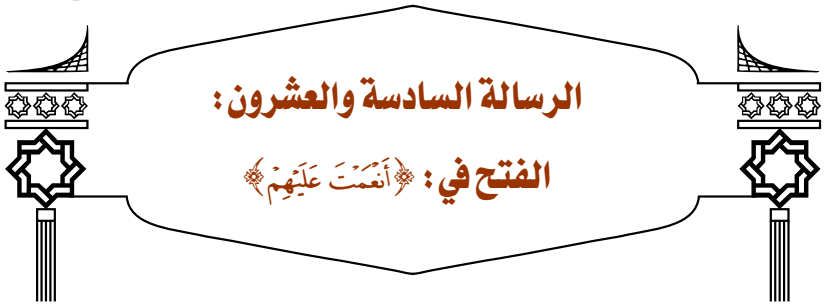

الرسالة السادسة والعشرون:

الفتح في: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾

مَنْ سَادَةُ الذين أنعم الله عليهم؟

أليس هم الذين قال الله -سبحانه- فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وهم من قال فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

هاتِ خَلْقَ الله جميعًا، ثُمَّ انظر مَن أشرف هؤلاء الخلق جميعًا، أليسوا هم هؤلاء الذين ذكر الله ﷻ، فهل عرفت أي دعاء اختار الله لنا في أم الكتاب؟

نعم إن هؤلاء رجالٌ، لكن أتدري ماذا عمل كل واحدٍ من هؤلاء لله -سبحانه-، كم تقرَّب لله وكيف تقرَّب، وكيف كانت سلامة قلبه، ورِقَّته، وإقدامه، وقل كل ما تتصور وكل ذلك يجمعه صراط كل واحدٍ منهم ويجمعهم جميعًا الصراط المستقيم، فهل أنت دعوت أن تكون كذوات هؤلاء الرجال، أم كان دعاؤك بإخلاص كإخلاص هؤلاء لله وأعمالهم ومنهج حياتهم وهو صراطهم؟!

الجواب: لا، بل كمنهج هؤلاء وأعمالهم.

هل فكرت لماذا هذا الوصف تحديدًا ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾؟!

وجوابي: هل من نعمةٍ أعظم من أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم؟

وهل من شيء أشمل لشئون الدنيا والآخرة من الصراط، صراط الدنيا وصراط الآخرة؟

لكن السؤال هو: كيف جاءت صيغة التعبير بالماضي وليس الحاضر ولا المستقبل وذلك بقوله: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾؟

أليست هذه الصيغة توقف كل قارئ للآية أمام أكرم رَكْبٍ وأشرف قافلة التزمتْ السير على صراط الله حتى أصبحتْ هي التعريف الحق للصراط المستقيم، بل توقف القارئ كآخر ملتحقٍ بهذا الركب وهو يقرأ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمۡ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِمۡ﴾ هذا إن قُبِلَ دعاؤه واستُجيب هتافه بربه هذا، بل هذا فأل حسن بأن دعاءه سيستجاب وعبادته.

ومن أسماء الجنة [جنة النعيم]، و [جنات النعيم] أليس في هذا إشارةٌ واضحةٌ لأن يكون ميراث هذا النعيم - أنعمت عليهم - هو نعيم الجنة فقال - سبحانه-: ﴿وَٱجعَلنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

إن في التعبير بـ ﴿أَنعَمتَ﴾ مطابقة ظاهرة إلى شكر أصحاب الصراط المستقيم لله -سبحانه- على أعظم نعمة، ثم ألا ترى فيها إلحاقَ الآخِر بالأول، ففي الابتداء كان قوله: [الحمد لله] وفي الآخر [شكر الله] فَالْتَأَمَ الكمال أحسن اكتمال.

أخي: ألا ترى كيف أشارت الآية بهذه الكلمة: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ إلى بلوغهم هذه النعمة اصطفاءً من الله -سبحانه-، فهو من سبق اختياره لهم فأنعم عليهم، وما كان -سبحانه- لينعم عليهم في الدنيا ولا ينعم في الآخرة.

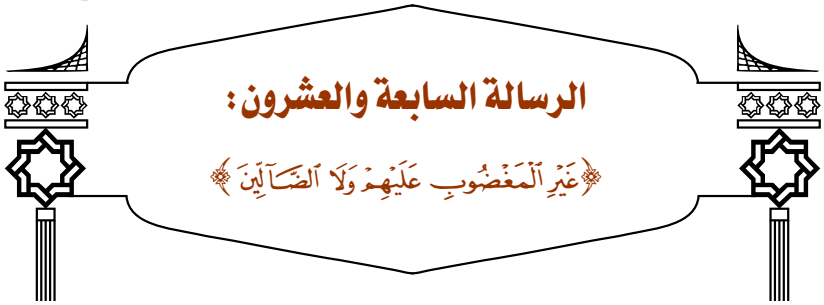

ألا ترى أن هذه تُرسِّخ عقيدة بأن الاستقامة على الصرط لا تكون بغير معرفة الضدِّ، وأنه لابد من مغايرةٍ فعليةٍ لهم؟

ألا ترى أن هذه الآيةَ تقرِّر أنه مادام أصحابُ الصراطِ السويِّ موجودين فإنَّ المغضوب عليهم والضالين موجودون؟!

ألا ترى كيف أن الله لم يكتفِ بتعريف الصراط بأنه المستقيم ولم يكتف بتعريف المستقيم بأصحابه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى ذكر ضدهم فقال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؟

ألا ترى أن النبي ﷺ بيَّن أن المراد بالمغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم النصارى؟ إذًا فَلِمَ لَمْ يذكر لهم صراطًا فيقول: «صراط المغضوب عليهم ولا الضالين»؟

ألا ترى الجواب هو أن المغضوب عليهم والضالين ليس لهم صراطٌ واحدٌ، بل هي سبلٌ متفرقةٌ؟! ألا ترى أن الصراط لا يصارع الصراط، بل كل صراطٍ برجاله، وكل صراع إنما هو بين أصحاب الطرق وليس بين الطرق والمناهج نفسها؟

ألا ترى قوله: ﴿غَيْرِ﴾ تعني التغاير، وأن التغاير درجاتٌ؛ فمنه التغاير النفسي

ومنه التنافر الجسدي، ومنه البراء العقدي، وهكذا، فهو درجات كما يُسمَّى في المصطلح الحديث «رفض الغير».

أليس منتهى التغاير أن يبلغ درجة الاختلاف حتى الاقتتال، أليست هذه هي نهاية سورة السبع المثاني، أليست هي نهاية الصراط المستقيم الذي طلب المؤمنون ربهم الهداية إليه، أليست هذه النهاية لهذه السورة هي نهاية صراع المؤمنين والمغضوب عليهم والضالين، أليست هذه هي نهاية الهدى الذي سوف يحقَّقه الله ﷻ على يد المهدي عليه السلام ومن بعده عيسى عليه السلام؟

ألا ترى أن هذا الصراط لابد له من نهايةٍ حيث يقوم فيها أصحابُ الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم بإزالة المغضوب عليهم والضالين عن سُبُلهم الضالة وإلا فيزيلونهم عن الوجود؟!

ألا ترى لو أن الصراع بقي إلى نهاية الدنيا مدافعة لَمَا ظهر الحق على الباطل إلى الأبد، ولما استبان الحق على الباطل، وقد قال الله -سبحانه- عن دينه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، نعم ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؟

ألا ترى أنه قد آن أوان دفعة الحق التي يزهق بها الباطل إلى الأبد، ألم يقل الله ﷻ في الصراع مع المغضوب عليهم: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال النبي ﷺ في نهاية الصراع مع الضالين: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ، حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**»(١).

(١) أخرجه مسلم (١٢٥٢).

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «**لَيَهْبِطَنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا، وَلَيَسْلُكَنَّ فَجًّا حَاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ بِنِيَّتِهِمَا، وَلَيَأْتِيَنَّ قَبْرِي حَتَّى يُسَلِّمَ عَلَيَّ، وَلَأَرُدَّنَ عَلَيْهِ**»(١).

أخي: أوليس ختام هذه الآية هو ختام هذه الدنيا؟!

أليس فيها إشارةٌ ظاهرةٌ وبشارةٌ غامرةٌ بأن العِزَّ الذي سيبلغه هذا الدين عِزٌّ ما بلغ الليل والنهار؟... كما قال النبي ﷺ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الكُفْرَ**»(٢).

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤١٦٢)، وقال: «**هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ بِهَذِهِ السِّيَاقَةِ**»، وصححه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللفظ له، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) (٦١٥٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

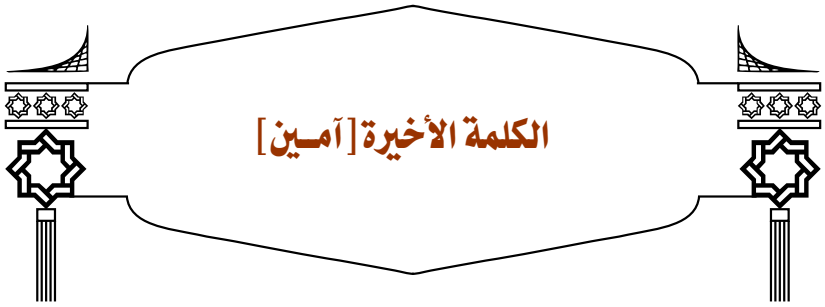

الكلمة الأخيرة [آمين]

آمين: شهادة على أن كل ما ورد في هذه السورة الكريمة من أولها إلى آخرها دعاء، وأن آمين كلمة واحدة من صاحب جوامع الكلم ﷺ قد جمعتْ مطالب السورةِ كِّلها فرفعتْها إلى الله رب العالمين.

آمين: كلمة واحدة أُوحِيَ بها لرسول الله ﷺ فقالها فقلناها، ولم تنزل مع آيات القرآن ككلمة من كلمات ربي، فالله ﷻ لا يقول ويُؤَمِّن.. إذ هو -سبحانه- يدعو مَنْ؟! وهو الله لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؟!

آمين: تبين مقام سنة النبي ﷺ بالنسبة للقرآن في الطاعة والاتباع... نعم هي غير القرآن إلا أن السنة مع القرآن هما دِيُن الله، وهما شرعه، وهما ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة، وأن الله لا يقبل عملًا من عبدٍ أبى اتباع رسول الله ﷺ حتى في «آمين»، فلو أننا تصوَّرنا أن عبدًا أَمَّ الناس في الصلاة فقرأ [أَمَّ الكتاب] وأبى أن يقول: آمين استكبارًا وعنادًا أَيُستجاب له دعاء [أمِّ الكتاب]، أم تُفتح له كنوزها؟! كذلك هي سنة النبي ﷺ، أرأيت كم هي السنة بالنسبة للكتاب وبالنسبة لقبول الدعاء وكذلك قبول العمل.

آمين: شهادة كذلك على أن السنة هي كلام رسول الله ﷺ ومنها فعله وتقريره، إلا أن القرآن شيء آخر، فالقرآن كلام الله ﷻ ولا شيء مطلقًا مثل كلام

الله ﷻ، ويجب على الناس أن يفرِّقوا في ذلك؛ فهذا هو الأساس في التفريق ما بين الخالق والمخلوق، وما بين الرب وعبده، فلا تختلط الأسس، ويالدمار إذا اختلطت الأسس! والنبي ﷺ نهى أن يُكتَب عنه أي شيء حتى يُكتَب القرآن، ويُفرِّق الناس بين القرآن وبين سواه، والتشابه بين القرآن والسنة إنما هو في وجوب الطاعة بل السنة مثل القرآن، ولا مِثْلِيَّة مطلقًا في الكلام، ولا في الإعجاز، ولا في العظمة، ولا في شيء من ذلك.. والنبي ﷺ يقول: «**وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(١).

آمين: كلمة تبيِّن محبة الله ﷻ لنا وإكرام الله لنا.. فأم الكتاب كلها من عند الله ﷻ.. وكل آية منها هي آية في أم للكتاب وهي آية مثانٍ من السبع المثاني.. والله ثنى فيها القرآن وجمعه في سبع آيات، وزادها على ذلك ما لا يعلمه إلا هو.. أي أنه -سبحانه- جعل كل هذا العطاء في [أم الكتاب] ما علمنا منه وما لم نعلم ثم قال: ليس عليكم إلا أن تقولوا: آمين، فتُعطَوْنَ ما ادَّخر الله لكم.

آمين: شهادة على أن أم الكتاب منفردة متفرِّدة في مقامها.. بل في مقاماتها التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.. فلَمْ تُختمْ سورةٌ واحدةٌ بجواب العبد ربَّه -سبحانه- هذا الجواب: آمين.

آمين: هي ختم الرجاء بالله فأصْغِ سمعك وأيقظْ قلبك لكل ما ورد في السبع المثاني من دعاء فإن ما فيها فوق الحدِّ والعَدِّ والإحصاء، ثم اجمعها كلها في قلبك فإذا انتهيت من قراءتها فليتفجَّر بها صدرك إلى لسانك، وَلْيعلُ بها صوتك علوًّا مناسبًا.. واحذر أن تكون في شيء من هذا الدعاء من الغافلين... وإلا

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

كيف تُجاب والنبي ﷺ يقول: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ**»(١).

عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: «آمِينَ»، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ(٢).

وَعَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ: أَنَّهَا كَانَتْ تُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ فِي صَفٍّ مِنَ النِّسَاءِ، فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بَلَغَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾»، قَالَ: «آمِينَ» حَتَّى سَمِعْتُهُ وَأَنَا فِي صَفِّ النِّسَاءِ، وَكَانَ يُكَبِّرُ إِذَا سَجَدَ، وَإِذَا رَفَعَ.

آمين: تُعَلِّمنا أنَّ القرآنَ أعظمُ ما يُسأل به الله ﷻ، وأن الله ﷻ لا يردُّ من سأله بهذا القرآن، وأن قول الله ﷻ في السؤال بهذا القرآن حق لا ريب فيه، حيث قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، فليس عليك أيها العبد إلا أن توجِّه نيتك إلى أن ما تقرأه دعاء، وأنك تريد ما في هذه الآية.. وفي كل آية من مخزون الدعاء العجب العجاب فكيف بالسبع المثاني.. كيف؟!

فَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يَقْرَأُ عَلَى قَوْمٍ، فَلَمَّا فَرَغَ سَأَلَ، فَقَالَ عِمْرَانُ: إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٩٣٢)، وصححه الألباني.

«مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ، فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ بِهِ»(١).

هل ترى رب العالمين يعرض علينا في كل آية من السبع المثاني أسماءه الحسنى، وعظمته، ورحمته، وقُربه، وهداه.. وهو لا يعلم أن ذلك يثير قلوبنا فتتوهَّج.. وتتوجَّه إلى ربها وتتفجَّر بدعاء؟!

وما هذا الذي أذكره إلا بعض بَثِّ الصدور المؤمنة الخاشعة إذ ذهب الله بها مع آيات أم الكتاب.. تسمعه حوارًا يدور من صدر رجل كبير بفطرته، وآخر لا يملك كتمان طلبه، وآخر يتداوى بما في كلمات الله من جروحه وجروح أمته.. فيبعثها كل واحدٍ من هؤلاء من فوره إلى ربه صادقة نقية كالشرارة تصعد إلى ذي العرش ﷻ، وهكذا تتردَّد آمين مع كل آية من السبع المثاني.

آمين: تذكَّرها واستحضرها يا قلبي.. قلها برجاء عظيم بعد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آمين؛ ناشد بها ربك كأنك تراه -سبحانه-، فيا رب عَرِّف أمة نبيك محمد ﷺ عليك من جديد... يا رب عَرِّفها بك كلما قَرَأَتْ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.. فكلما عرفتك ربي عادت إليك مسرعة مُلَبيَّة ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

يا رب ارحمها وعَرِّفها بك فإن أمة نبيك ﷺ إن عادت إليك أعادت -بِإِذْنِكَ- كل الأمم إليك.

---

(١) رواه أحمد (١٩٨٨٥)، والترمذي (٢٩١٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٥٧).

آمين: تحرَّك بها يا قلبي بعدما تقول: الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: فاللهم هذا حمدنا يا ربنا في هذا الزمان رفعناه لك وحدك عَنَّا وعن كل من قصَّر من العالمين.. معتذرين يا رب عنه.. يا رب فَأْتِ بالعالمين الآخَرين واجعلهم لك يا رب من الحامدين الشاكرين، فأنت يا رب [أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِدَ، وَأَنْصَرُ مَنِ ابْتُغِيَ، وَأَرْأَفُ مَنْ مَلَكَ، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى، أَنْتَ الْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَالْفَرْدُ لَا نِدَّ لَكَ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَكَ، لَنْ تُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِكَ، وَلَنْ تُعْصَى إِلَّا بِعِلْمِكَ، تُطَاعُ فَتَشْكُرُ، وَتُعْصَى فَتَغْفِرُ، أَقْرَبُ شَهِيدٍ، وَأَدْنَى حَفِيظٍ، حُلْتَ دُونَ النُّفُوسِ وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي، وَكَتَبْتَ الْآثَارَ وَنَسَخْتَ الْآجَالَ، الْقُلُوبُ لَكَ مُفْضِيَةٌ وَالسِّرُّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، الْحَلَالُ مَا أَحْلَلْتَ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمْتَ، وَالدِّينُ مَا شَرَعْتَ، وَالْأَمْرُ مَا قَضَيْتَ، وَالْخَلْقُ خَلْقُكَ، وَالْعَبْدُ عَبْدُكَ، وَأَنْتَ اللهُ الرَّؤوفُ الرَّحِيمُ][(١)].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ**»[(٢)].

آمين: أيها القلب؛ فليشتد الآن بها رجاؤك فأنت الآن تقف أمام الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ: يا رب ارحم خلقك جميعًا؛ فلقد اجتالتهم الشياطين في هذا الزمان عن

---

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير) (٨/ ٨٠٢٧)، عن أبي أمامة به مرفوعًا. وقال الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ١١٧): وفيه فضال بن جبير؛ وهو ضعيف مجمع على ضعفه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وصححه الألباني.

هُداك، اللهم وكما رحمتهم يوم بعثتَ رسولك محمدًا ﷺ فيا رب ارحمنا في هذا الزمان، واجعلنا ممن يحمل رحمتك للعالمين أجمعين وأنت [الله الرحمن الرحيم].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **آمين**: يا رب اجعلها صادقة ناصعة خالصة.. يا رب بَلِّغنا بـ[إياك] منازل المحسنين، فإنه لا يصلح لها إلا الإحسان، والإحسان فضلك تمنُّ به على مَن تشاء من عبادك، ونحن الآن عند بابك.. وأمة حبيبك محمد ﷺ كلها يا رب تنتظر الإحسان... تنتظر الفتح بالفاتحة.

خذنا، يا ربنا إلى مقام نعبدك ربنا كأننا نراك.. نراك في كل عبادتنا، ونراك عند استعانتنا.. يا رب ليس لنا سواك، وقد طال انتظارنا في الطوابير بعيدًا عن منازل المحسنين، اللهم فقرِّبنا كأننا نشهد، بل كأننا نشاهد.. ولك يا رب المثل الأعلى.. اللهم آمين.

يا رب أجب فهذا هو الدعاء الصريح الوحيد هذا الدعاء الجامع بكل ما فيه.. وكل ما في أم الكتاب على وجه الكمال والإحسان، فاللهم [اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] اللهم آمين: يا ربنا إننا ما زلنا نتعلَّل أننا على الصراط المستقيم مع أننا هجرنا مرجع الصراط كله وهو هذا القرآن العظيم وهذه السبع المثاني هي أم القرآن..! فاللهم هداية يا رب إلى الصراط المستقيم كله.. لأمة محمد ﷺ كلها ولكل الناس من ورائهم ليكونوا جميعًا على الصراط المستقيم، فيغادر الناس سُبُل الشيطان، ويُسرعون ربي عبورًا على الصراط المستقيم يوم يُضرب على ظهر جهنم إلى جنات النعيم.

يا رب حبًّا منا في فرحك يا مَنْ تفديك أرواحنا وهي المتشرِّفة المتشوِّقة

لك.. فإن فرحك بهداية واحد من عبادك أعظم من فرح الأم بعودة وحيدها الرضيع الذي أضلَّ عنها.. فكيف يا رب إذا دخلت الشعوب والبلدان في دين الله أفواجًا، فاللهم اهدهم على أيدينا إلى الصراط المستقيم.. فاللهم آمين.

يا رب آمين تلهج بها قلوبنا عند: [صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ] يا ربنا اجعلنا ممن أنعمت عليهم بالجنة فجعلتهم في جنات النعيم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].. يا رب وكَثِّرْ بنا يا ربنا العابرين الصراط المستقيم، والسابقين عليه إلى الجنة من فوق جهنم ربنا سائرين هناك حتى يعظم الناجون في ذلك اليوم... يا رب أقرَّ عين رسولك وحبيبك بنا ﷺ... يا رب العالمين اللهم آمين.

آمين يا رب، يا رب آمين: [غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ]: آمين: يا رب العالمين هؤلاء هم الذين أغضبوك وشتموك وأنت -سبحانك- تُنظرهم، وتحلُم عليهم، وترزقهم، وتمد لهم في أعمارهم... يا رب اليوم يوم رحمتك أنت، وأنت [الله الرحمن الرحيم] وأنت القائل: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [المُلك:٢٨-٢٩].

يا رب فاهدهم وارحمهم واجعلهم لأقوامهم منارة هدى، وللإسلام جندًا وهداة.. أما مَنْ غلبت عليه شقوته فأبى إلا عداءك واستكبر فاللهم أحق عليه غضبك ولعنتك وطهِّر هذه الأرض منه تطهيرًا.... اللهم آمين.

آمين: في ختام أم الكتاب شهادة بأن الدعاء لا يُشترَط له أن يكون صريحًا في الطلب، فعند أي كلمة من كلمات ربنا يتنوَّر القلب بطلب، سواءٌ تحرَّك به

اللسان أو لم يتحرَّك فإنه عند من يعلم السر وأخفى دعاء، فاقرأ كل آية من السبع المثاني وأنت تفقه معناها وترى بعينيك رجاءها، ومقتضاها، وخيرها، وهداها، ونورها، وبركتها.. فلا يملك لسان قلبك إلا أن يسارع فيقول: يا رب يا رب.. أو يقول: آمين آمين، أو نحو ذلك من تجارب القلب مع إيحاءات كلمات ربه -سبحانه-.

أليس للقلب حركة، ألا تحرِّك «بسم الله الرحمن الرحيم» القلب من مكامنه ليطلب ما يشاء إذ هو في أوج التفاؤل وذروته.. ألا تحرِّك «الرحمن الرحيم» القلب ليشهق بطلب إلى [الرحمن الرحيم]، كيف إذا شعر بتجلِّي رحمة [الرحمن الرحيم] قريبًا منه.... هكذا يجمع في القلب ويجتمع حتى إذا ما امتلأ القلب بذلك الطلب كله واجتمع عند ختام السبع المثاني كله انفجر القلب بصوت مسموع عالٍ لله رب العالمين «آمين».

آمين: كل ما في أم الكتاب من دعاء فهو دعاء جماعي: [العالمين.. نعبد.. نستعين.. اهدنا.. الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، ولا الضالين].. والله ينظر لنا أينما نكون ندعو بهذا الدعاء الجماعي وهو -سبحانه- يبارك دعوتنا.. وأنَّا لما اجتمعنا على [أم الكتاب] فكأننا اجتمعنا على الكتاب كله، وأننا لما اجتمعنا على قراءتها مجتمعين معنى ومبنى اجتمعت قلوبنا وأبداننا وأسماعنا وتأميننا.. حيث الدعاء جماعي، وطلب القلب عند كل آية جماعي، وجاءت آمين كطلبٍ جماعي.. جاءنا الله ﷻ بأهل سماواته يُؤَمِّنون معنا.. بل هو -سبحانه- يقول لنا في كل مرة: قد أجبت.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ**

مِنْ ذَنْبِهِ»[(١)].

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ»[(٢)].

آمين: هذه الكلمة شهادة عظيمة على أن رسول الله ﷺ أَمَّنَ عَنَّا جميعًا إذ هو أول من دعا بهذا الدعاء لجميع أمته خاصة.. والذي تدعو به أمته وحدها... فيا رب: آمين من قلب رسول الله ﷺ ومن لسانه ﷺ لسان الصدق إليك عنا جميعًا، وهو ﷺ من علَّمنا أن نقول: آمين، فهو ﷺ إمامنا ومُعلِّمنا ومُزكِّينا وقائدنا وقدوتنا وهو المؤمِّن على هذا الدعاء الذي هو لنا وهذا ما يريده له ربنا -سبحانه- ولهذا أثبت قوله هنا فصلى الله وسلم على رسوله الكريم، وما أثبت تأمينه -سبحانه- إلا ليثبت إجابة دعوته لأمته خاصة... فيا رب حقِّق تأمين رسولك ﷺ وأجب دعوته فينا نحن اليوم، فنحن أمته الغرباء البعداء الفقراء الممزَّقون التائهون المخذولون... يا رب النجدة بتأمين رسولك ﷺ على أم الكتاب... اللهم آمين.

آمين: هذه الكلمة أثبتها الله ﷻ عن طريق رسوله ﷺ في خاتمة السبع المثاني والقرآن العظيم **إثباتًا لتبين للناس مقام سنة رسول الله** ﷺ وهَديه و ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٤-٥].

فلن يستطيع أحد أن يفرِّق بين الله ورسوله ﷺ، ولن يستطيع أحد أن يفرِّق

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٥)، ومسلم (٤١٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦٨٩١)، وكذلك رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري (٤٠٤).

بين طاعة ما جاء في القرآن عن طاعة ما جاء في السُّنَّة، فطاعة الجميع سواء، كما قال الله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

آمين: شهادة من كل من يقولها أن سيدنا وإمامنا محمدًا رسول الله ﷺ، وأنه إذا دعا دعونا، وإذا قال قلنا، وإذا أمر أطعنا، وإذا دعا أَمَّنَّا.

آمين: شهادة على أنَّ اتِّباعَنا له ﷺ اتباعُ [أم الكتاب] والتي فيها الكتاب كله، وهي كما قال النبي ﷺ: «الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي»(١).

آمين: إنه التأمين لسلامةِ رحلةِ المؤمنين إلى الدار الآخرة...إنه التأمين على سلامة قافلة المؤمنين بسيرها على الصراط المستقيم.. إذ الجميع يستغيث بأسماء الله الحسنى للأمة كلها بما جعل الله وادَّخر في أم الكتاب.

آمين: إنها رحلة المؤمنين جميعًا برعاية الله وأسمائه الحسنى أن يعبروا عرصات يوم الدين وويلاته ويجتازون جهنم إذا وردوها.. ولا طريق إلا بالمرور على الصراط ومجاوزة كلاليبه ومزالقه ومهاويه ومهالكه.

آمين: إنه التأمين من السابقين لإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم مِن خَلْفِهم أن يلحقوا بهم في النعيم إذ بلغوه، وهو التأمين من اللاحقين على نفس الدعاء - وأم الكتاب كلها دعاء- أن يُلْحقهم الله برسول الله ﷺ وبالأنبياء وبالصِّدِّقين والشهداء الذين بلغوا المنزل، والمنزل جنات النعيم.

آمين: إنه التأمين على أمورٍ عظيمة ادَّخرها الله في هذه واستجابها للمؤمنين إذ دعوا بها وهم لا يشعرون، وأمَّنوا عليها -وفيها الخير كله- وهم لا يعلمون..

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٥٧)، وصححه الألباني.

فـإذا جـاء يـوم القيامـة تفجَّـرت أم الكتـاب بأمهـات الخيـرات والمفاجئـات والكنوز...

أَوَليست أُمُّ الكتابِ كنزًا لأمة محمـد ﷺ خاصـة أنزلـه الله مـن تحـت عرشـه الكريم؟!

وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ**»(١).

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٥٦)، وصححه الألباني.

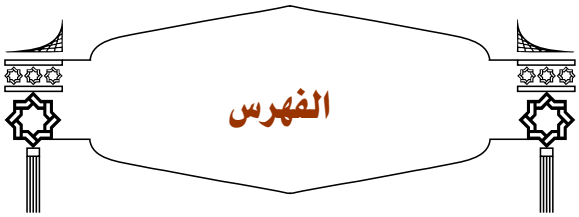

سورة الفاتحة ٥
المقدمة: السبع المثاني والقرآن العظيم (وكيف لا يكون الفتح بالفاتحة؟) ٧
الرسالة الأولى: فاتخِذوه عَدُوًّا..... ٣٠
الرسالة الثانية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أُعْجُوبةُ حَرْفِ البَاءِ في الْبَسْمَلَةِ ٣٦
الرسالة الثالثة: سلطانُ أسماءِ اللهِ ٤٠
الرسالة الرابعة: كُلُّ ما في أُمّ الكتاب يَدُلُّكَ عَلَى [الله] ﷻ ٥٣
الرسالة الخامسة: تعريفُ اللهِ سبحانَهُ في ابتداء أم الكتاب ٥٩
الرسالة السادسة: تَدَبَّرْ قِسْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ لِلصَّلَاةِ.....٦٣
الرسالة السابعة: نَعَمْ: يقابلُكَ ويقابلُ كلَّ واحد.....٧٢
الرسالة الثامنة: هَلْ يَحتاجُ الحَمْدُ إلى بيانٍ نظري؟! ٧٩
الرسالة التاسعة: التجاوبُ الأعظمُ في أُمِّ الكتابِ.....٨٦
الرسالة العاشرة: نظرةٌ لأُمِّ الكتابِ مِن غيرِ مُسلمٍ ٨٩
الرسالة الحادية عشرة: كيفَ يقرأُ غيرُ المُسلمِ: (الحمد لله) ٩٢
الرسالة الثانية عشرة: كيفَ يقرأُ بحَّاثة غير مُسلم: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ٩٦
الرسالة الثالثة عشرة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ و ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ١٠٠

الرسالة الرابعة عشرة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٠٤
الرسالة الخامسة عشرة: ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ ١٠٧
الرسالة السادسة عشرة: ﴿إِيَّاكَ﴾ هي الإذن بمباشرة الخطاب ١١١
الرسالة السابعة عشرة: عجبًا لهذا الترابط: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١١٤
الرسالة الثامنة عشرة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١١٧
الرسالة التاسعة عشرة: الاستعانة بعد العبادة..... ١١٩
الرسالة العشرون: أسئلة الفتح في ﴿ٱهْدِنَا﴾ ١٢٢
الرسالة الحادية والعشرون: إزالة الحجب السوداء عن شموس ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٢٥
الرسالة الثانية والعشرون: أسئلة الفتح في ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ ١٣١
الرسالة الثالثة والعشرون: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٣٤
الرسالة الرابعة والعشرون: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٣٧
الرسالة الخامسة والعشرون: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ١٤٠
الرسالة السادسة والعشرون: الفتح في: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ١٤٢
الرسالة السابعة والعشرون: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ١٤٤
الكلمة الأخيرة [آمين] ١٤٧
الفهرس ١٥٨